2020
30.12.2019

الأعمال الكاملة

إميل حبيبي

سداسية الأيام الستة

وقصص أخرى

اميل حبيبي

سداسية الأيام الستة

وقصص أخرى

سداسيّة الأيام الستّة
وقصص أخرى

إميل حبيبي
سداسيّة الأيام السّتة وقصص أخرى
مجموعة قصصيّة
(الطبعة الأولى صدرت عام ١٩٦٨)

Emile Habiby
Sudasiyyat al-Ayyam al-Sittah
(The Sextet of the Six Day War)

النّاشر: دار عربسك للنشر، حيفا
المحرِّرة: سهام داوود
تصميم: شريف واكد

ISBN 965-7388-00-7

حقوق الطبع وإعادة النشر، كاملاً أو جزئيًا، وبكافة وسائل الإعلام المطبوعة والإلكترونيّة، محفوظة لـ« دار عربسك للنشر »، صاحبة الحقوق الحصريّة والمسجّلة قانونيًا، ولا تُمنح دون اتفاق مُسبق وخطّي معها.

الموزع الرئيس: مكتبة كل شيء – حيفا

ساهم في إصدار هذه الأعمال مؤسسة عبد المحسن القطّان

2006 ©
Arabesque Publishing House
P.O. Box 6370, Haifa 31063

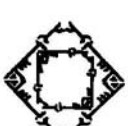

حياتنا:

« الصّبر – فيها – خافض، والعفاف يابس، والجدّ خشن والصدق مرّ، والحقّ ثقيل، والكظم وفي اللقمة العظم »!

(بديع الزّمان الهمذاني)

هذا الكتاب

في نهاية سنة ١٩٦٨ ظهر عدد خاص من مجلة «الطريق» التقدُّمية اللبنانيّة عن الأدب العربي في إسرائيل أثار اهتمامًا واسعًا في العالم العربي حتّى تجدّد طبعه. وتضمّن هذا العدد الخاص، فيما تضمنه، «سداسيّة الأيام الستّة» التي كنت نشرتُها في مجلّتنا «الجديد» تباعًا ابتداءً من العدد الصادر في ٤ نيسان من السنة نفسها، ووقّعتها باسم (أبو سلام).

وفي مطلع السنة التالية، ١٩٦٩، ظهرت «سداسية الأيام الستّة» في القاهرة في كتاب من كتب «روايات الهلال» مع قصّة الكاتب الفرنسي التقدمي المعاصر، فيدكور، «صمت البحر».

فأخذ عدد من دور الإذاعة في البلاد العربية، ومنها القاهرة، في اقتباس قصص «السداسية» تمثيليات إذاعيّة أثارت اهتمام النّاس هنا في إسرائيل، الذين كان كثيرون منهم قد مرُّوا عليها في «الجديد» دون انتباه. هذه هي الطبيعة الإنسانية عمومًا، فكيف لا نفهمها في فرعٍ يحنُّ إلى جذعه!

فطلبوا، معتذرين ولا ملامة، أن أُعيد نشرها. ففعلت. وضمنت هذا الكتاب، مع «سداسيّة الأيام الستّة»، قصّتين وتمثيلية قصيرة كنت قد نشرتها أيضًا في «الجديد» – «بوابة

مندلباوم» في آذار ١٩٥٤، «قدر الدنيا» في تشرين الأول ١٩٦٢، و«النوريّة» في آذار ١٩٦٣(*).

إنّي أحترف السياسة وأتذوّق الأدب، فأسند الواحد بالآخر. وأكتب القصّة في أوقات متباعدة حين يضيق صدري عن آهة لا يقوى صدري على حبسها. ونحن، رجال السياسة، ندرك أن التنهُّد، مثله مثل الشتيمة، لا يقدِّم ولا يؤخِّر. فعلينا أن نصدر عن الواقع، مهما يكن مؤلمًا، للسير به إلى أمام، لا إلى خلف، نحو التغيير السويّ الممكن، لا المغامر، غير الممكن. ولكن، على الرغم من كل واقعيتنا، هل نستطيع أن نمنع الإنسان عن التنهُّد، والمظلوم عن الشتم؟

وأعتبر انفجار الاهتمام في البلاد العربيّة، بعد حرب حزيران ١٩٦٧، بشعرنا وبأدبنا، صادرًا عن شعور النّدم على أنهم أهملونا، فظلمونا وظلموا أنفسهم، وعن إدراكهم، آخر الأمر، أن الباقين في ملاعب الطفولة، يدرسون بيادرها بأقدامهم الحافية، أخلص لهم من الندّابين على بيارات كانت، في الماضي أيضًا، محظورة على الشعب، باعها مُلاّكها ثم باعوا وطنهم!

لقد كتبتُ «سداسيّة الأيام الستّة» في السنة الأُولى على حرب حزيران وعلى الاحتلال الذي جاء في أعقابها. ولو سمّوا الحرب حرب الأيام السبعة لإنشائها سباعية حتى أقلب الاسم على ظهره فنرى ويروا الوجه الآخر لمأساة هذه الحرب – السجين

عشرين عامًا وهو مقطوع عن أهله، استيقظ يومًا على لغط في باحة السجن، فإذا به يلقى أهله جميعًا وقد حُشروا معه. فكيف يشعر في هذا اللقاء بعد طول القطيعة والوحدة، أي لقاء؟

وحين جمعت القصص، التي كنتُ نشرتها في «الجديد» قبل حرب حزيران، تبيّنت أن هذه الفُرقة وتخيُّلات اللقاء، كيف يكون، كانت تشغلني دائمًا. وهي، في الواقع، موضوع جميع القصص التي جمعتها في هذا الكتاب.

إنّها تعبير عن شعورنا بأن الواقع الذي نعيشه في هذه البلاد هو أمر غير طبيعي. وما فعلت حرب حزيران غير أنها وضعت خطًا أحمر تحت هذا الشعور، وأكّدت أنه لا مناص من إحلال السلام العادل بين إسرائيل والدول العربية. في ضواحي القدس الإسرائيلية، أمام مدينة بيت لحم في الضفة الغربية، تقوم قرية بيت صفافا العربية التي كان سياج يشطرها إلى نصفين: نصف في إسرائيل ونصف في الأردن. فإذا احتفل أحد أبنائها بعرسه كان أهالي القرية جميعًا يخرجون وراء العريس يزفُّونه، الأردنيون في ناحيتهم من السياج، والإسرائيليون في الناحية الأُخرى، دون أن يتحدّث هذا الفريق مع أهله من الفريق الآخر، في الزفّة الواحدة. وكذلك في المآتم! ولم يتغيّر الأمر كثيرًا الآن بعد حرب حزيران وبعد أن زال السياج، فلا

يستطيع ابن بيت صفافا الأردني أن ينتقل إلى القسم الإسرائيلي من بيت صفافا دون إذن عسكري خاص. فهل من الممكن التفكير بأي مستقبل لهذه البلاد المقدّسة باستثناء دماء أهلها ومشاعرهم، سوى السلام العادل، سلام الشعوب بحق الشعوب؟

فإذا أسهمت هذه القصص في الإقناع بأنه لا طريق معقول غير هذا الطريق لا يذهب التنهُّد هباءً، ويعود الأدب يسند السياسة الصحيحة.

(المؤلف)

(*) ثم أضاف إليها، في طبعة متأخرة، صدرت العام ١٩٧٤، قصة «مرثيّة السلطعون» / الناشر.

(١)

حين سَعِد مسعود بابن عَمِّه

«لماذا نحن يا أبتِ
لماذا نحن أغراب؟
أليس لنا بهذا الكون
أصحاب وأحباب؟»

(أُغنية فيروزيّة)

ما تجعَّس مسعود كما تجعَّس في صباح ذلك اليوم التمّوزي القائظ حين نزل إلى الشارع يعلن بالدليل الحسّي القاطع أن له، هو أيضًا، أعمامًا وأبناء أعمام.

ومسعود، الذي يُعرف بيننا بكنية «فجلة»، هو من أولاد حارتنا. نطّ عن العاشرة شبرًا أو شبرين. ولكنه ليس طفلاً. فلا يحسن بك أن تنتهره على اعتبار أنه طفل. حينئذ تسمع منه ما لا يسرّك. فمسعود يفهم في السياسة. بل لمسعود نشاطه السياسي الخاص، من مثل تنفيس العجلة اليمنى في سيارة الشرطة، حين تقف قريبًا من سور الأقباط – ضمانًا لقفزة الرجعة إلى ما وراء السور. وهناك دلائل كثيرة تشير إلى أنه أول من نظم شعار «عرب ذهب» خصوصًا وأنا أخاه الكبير، مسعد، لا يكفّ عن التأوّه مرددًا: «عرب جَرَب». ومسعود لا يعجبه مسعد.

وهاكم، يا شطّار، قصة ذلك الصباح التمّوزي القائظ، الذي تجعَّس فيه مسعود، «الفجلة»، كما لم يتجعَّس في حياته من قبل. لقد بلغتني من فم العصفورة التي كثيرًا ما تُدهش الأطفال بما تنقله من أسرارهم إلى كبارهم، فإنهم لا يدركون أن هؤلاء الكبار إنما هم صغار كبروا:

في عشية اليوم، الذي سبق صباح الجعسة، دخلت الحي سيارة خصوصية فخمة، بجناحين مثل الطيّارة، غريبة، ذات

رقم أزرق وزامور نغّام بعثر الأولاد عن طريقها. وكان مسعود واحداً من الذين تبعثروا.

ثم توقّفت هذه الطيّارة أمام بيت مسعود من دون بيوت الحي جميعًا. لا أنا ولا غيري نستطيع الادعاء بأن بيوت حيّنا الأُخرى متعوّدة على وقوف سيارات خصوصية فخمة أمامها. غير تراكّات الشيد والجيبات، التي لا تدور إلاّ في الدحلة، ما عرف حيّنا الكئيب. ولكن الأمر لا يخلو من شواذّ. نحن في هذا الحي جميعنا من حمولة واحدة، أو قل: أطراف مشلّخة من حمولة واحدة. فلا يخلو الأمر من زيارة يقوم بها أحد وجهاء الحمولة، بسيارته، لنا حين يحلّ العيد الكبير قبيل الانتخابات البلديّة، أو حين يعتازنا لتأديب منافسه على مضخّة البنزين. أو زيارة «الخواجة» يوم السبت بسيارته، في طريقه إلى طبريا، لضمان وصول الشيد في الساعة السادسة من صباح الأحد.

قلت: جميعنا من حمولة واحدة باستثناء الولد مسعود وعائلته. إن عائلة أبي مسعد، الذي يشتغل طوارئ في البلدية، هي عائلة «طالعة من الحيط»، لا خال ولا عمّ، أو كما نقول – نحن أولاد الحمائل – لا همّ ولا غمّ.

ولذلك حين وقفت هذه السيارة الغريبة الفخمة أمام بيت مسعود تلعثَم الأولاد. لقد كان الأمر الطبيعي أن يتراكضوا.

ليتحسّسوها وليخطّطوا بأصابعهم على زجاجها المغبر مسبّة أو مسبّتين. ولكن مسعودًا، حين رآها تقف أمام بيته، وقف مشدوهًا فوقف معه الأولاد جميعًا مشدوهين: كيف تقف هذه السيارة الفخمة الغريبة أمام بيت «فجلة» المقطوع الأصل والفصل؟

ما كان يهم مسعودًا أن أقرانه ينادونه بكنية «فجلة» ولا كيف لصقت هذه الكنية به. فهكذا تناديه أُمه أيضًا. وهو ينادي أقرانه بكنياتهم. فهذا «العسكري»، وذاك «الصرصور»، وحتى معلم الحساب في المدرسة لا يعرفونه إلاّ باسم «الحيحي»، وهو يحب الفجل، ويحب عادةً المناداة بالكنية لأنها تحقّق المساواة بين الناس، بدون الحمائل وقرفها. إلاّ أنه يحب أن يكون له، كغيره، أعمام وأخوال.

وبعد أن جرّ مسعود رجليه إلى البيت جرًّا، ودخله متهيِّبًا، التقى لأوّل مرة في حياته بعمّه وبأولاد عمّه الذين جاءوا من «سيلة الضهر» في الضفة الغربية يزورون عمّهم أبا مسعود.

وتبيّن مسعود أنه ليس مقطوع الأصل والفصل، وليس غريبًا في هذه الدنيا.

وأهمّ من هذا الاكتشاف، أن يثبته لأقرانه. وبدأت في حياة مسعود سلسلة أحداث للمرة الأُولى.

لأول مرة وجد أن والدته تفهمه ولا تعانده. قامت مع الفجر

وفتحت صندوق الثياب وألبسته بدلة العيد ببنطلونها الطويل. ولأول مرة لم يعاند والدته، فغسل وجهه دون جرّ ودون لكمات. وتظاهر بالأدب في حضرة ابن عمه، سامح، الذي في مثل سنّه، والذي يلفظ القاف قافًا ويفخّمها. ولأول مرة أفطر دون أن يشرشر على قميصه. ولأول مرة وجد أخاه الكبير، مسعدًا، يدسّ في جيبه، وفي جيب سامح، قروشًا.

وأخيرًا أخذ مسعود بيد ابن عمه ونزل إلى الحياة!

وتوالت سلسلة المرة الأُولى في حياة مسعود. لأول مرة سمع الأولاد يقولون له، دون سبب معقول: مرحبا. وظلّوا يمرحبونه من عتبة البيت حتى دكان أبي ابراهيم الذي دخل ليشتري «آرتيك» لابن عمه، وله طبعًا، دون أن يسمع تشقيعة واحدة. وكاد، وهو في عنفوان الترحيب، أن يلكز بنت رتيبة لولا أن ابن عمّه، الأُردني، سبقه إلى ذلك. والمدهش في الأمر أن أخاها، الحشريّ، تظاهر وكأنما لا عليه ولا على باله.. وهذه الحركة التي سبقه إليها ابن عمه، الغريب، أشعرته بصلة القربى به أكثر ممّا شعر بها حين ناما على فراش واحد.

ولأول مرة رحّب به أبو ابراهيم، صاحب الدكان:

– صباح الخير يا مسعود، لا يا «فجلة».

ثم قذفه بالسؤال الحاسم:

– من الشاب؟

– ابن عمّي. وشدّ على العين حتى كادت تخرج قافًا. وتحوّطه الأولاد..

– عمّك، أخو أبيك من أُمه وأبيه؟

– عمّي لَزَمْ..

– من أين؟..

– من الضفّة..

أصبح لـ« فجلة » ابن عمّ، من عمّ لزم، ومن الضفة، وبسيارة ذات جناحين. وعاد « فجلة » مسعودًا. وأحسّ أنه يريد أن يوزّع « الآرتيك » على الجميع، ولو لحسة لحسة.

ولكن صولة مسعود لم تدم طويلاً. فابن رتيبة الحشري لم يشأ لهذا النهار أن يمرّ على خير. ويظهر أن الحسد أعماه مع أن له أعمامًا وأخوالاً لا يُعدّون ولا يُحصَون. أو أنه أراد أن ينتقم للكزة أُخته. ففاجأ الحشد، دون مقدّمات شاتمًا:

– يلعن أبو الملك حسين.

– يلعن أبوك.

– يلعن أبو الأردن.

– يلعن أبو إسرائيل.

وكانت هذه المشادّة المذهلة تدور بين ابن رتيبة وابن عمّ مسعود، وكانت تنذر بتجدُّد حرب الأيام الستّة، لولا التهدئة التي أجراها أبو إبراهيم، صاحب الدكان، ولولا اللخمة الطامّة

التي وقع فيها الأولاد الذين ضاعوا بين حانا وماناً دون أن يقرّ قرارهم على أي فريق يجب أن يشدّوا الباع. أما مسعود فما تردّد في الأمر لحظة واحدة. فعلى الرغم مما كان يسمعه في البيت من أُخته «الفيلسوفة»، التي وصلت إلى الصف العاشر، وممّا كانت أُذناه تلتقطانه من مسبّات في الراديو، فقد قرّر أن يقف مع ملك ابن عمّه، لأنه ابن عمّه، ولأن ملكه مغلوب، ولأنهم يجب أن ينسحبوا. فتأهّب للمعركة، حتى سالت «الآرتيك» على قميصه دون أن يلحسها.

وسحب ابن عمّه من يده وخرجا من الدكان دون أن يبتعدا كثيرًا عن البيت. كان مسعود دائمًا يحسب حساب الرجعة.

وسار ابن رتيبة معهما وأولاد آخرون. وعاد الجوّ فصفا. وتدافع الأولاد يعرّفون سامح على الحارة.

هذا هو المسجد الجديد. وأهل الحارة بنوه لا الحكومة. وقال الحشري: قبل أُسبوع أحضروا ضباطًا مصريين ليصلّوا في الجامع فطردناهم بزفّة. لماذا خانوا بلادهم؟

وحين قعدوا على عتبة المسجد أحسّ مسعود أنه لا يزال، بابن عمه، سيّد الموقف. فدخل في السياسة:

– لازم ينسحبوا..

وهَمهَم الأولاد:

– لازم..

– والروس معنا..

وهَمهَم الأولاد:

– معنا.. معنا..

ولاحظ بعض الأولاد أن الولد الملقّب «العسكري» قد وصل لتوّه. فصاحوا به: هذا هو ابن عمّ مسعود جاء من الضفة في السيارة اللمع.

وأعاد «العسكري» السؤال:

– ابن عمّك لزم؟..

وكان سامح هذه المرّة هو الذي أجاب: لَزَمْ ونُصّ!

ولم يتعوّد «العسكري» أن يكون غيره محطّ الاهتمام حتى ولا مسعود بعد أن أصبح له ابن عم من الضفة، فصاح:

– الراديو أذاع أن الحرب وقعت من جديد على قناة السويس.

وطلب سامح الرجوع إلى البيت حالاً. والأولاد قالوا: قرّبت.

وعاد مسعود بابن عمّه إلى البيت.

وفي المساء رحلت السيارة الغريبة الفخمة، ذات الرقم الأزرق والزامور النغّام، عن حيّنا. وعاد مسعود «فجلة». وعاد يلعب في الحارة حافي القدمين. إلاّ أنه أصبح بين وقت وآخر يلفظ القاف قافًا، ويفخّمها، ولكنها تأبى أن تخرج من بين شفتيه إلاّ كافًا متعثّرة.

ولا أُريدكم، يا شطّار، أن تفهموا من هذا أن مسعودًا عاد إلى حالته السابقة في حيّنا. بل صار مثله مثل بقيّة الأولاد، ذا أعمام وأخوال وأقرباء، ولم يعد مقطوع الأصل والفصل. وكان يذهب مع والده ووالدته إلى الضفة. وكان يزوره أعمامه وأخواله من الضفة.

وكان، كبقيّة أولاد الحارة، يثق بأنهم سينسحبون. ومع طلوع كل فجر كان يعتقد أنها قرّبت يومًا واحدًا. وكان يفغر فمه وهو يصغي إلى أقصى حدّ حين تتحدث أُخته «الفيلسوفة» عن حتمية الانسحاب.

وأصبح يحب ابن عمّه سامحًا حبًّا جمًّا. وكان يستمع بإعجاب إليه وهو يتحدّث عن أخيه الذي يعمل صيدليًا في الكويت، والذي زار القاهرة، وحضر غناء عبد الحليم حافظ بشخصه.

وكانت أُخته «الفيلسوفة» تجرّب فيه جميع مفاهيمها السياسية حين تساعده على تحضير فروضه المدرسية أو حين تضعه في الفراش لينام. وكان يسألها عن كل ما يعنّ على باله فتجيبه. وكان مثلها متحمّسًا للانسحاب وواثقًا بأنه واقع لا محالة.

ولكن سؤالاً واحدًا لم يجرؤ على توجيهه إلى أُخته «الفيلسوفة»، خوفًا من لطمة كفّ، فخناقة مع أُخته التي

لا يحب أن يخانقها، أو خوفًا من شيء آخر في ذاته:

– هل، حين ينسحبون، سأعود كما كنت.. بدون ابن عم؟!

ثم كان ينام وهو يحلم بسامح، وبأخيه الذي في الكويت، الذي زار القاهرة وحضر غناء عبد الحليم حافظ بشخصه.

(٢)

وأخيرًا نوَّر اللوز

«بـلادي، أعـدنـي إلـيـهـا
ولـو زهـرة يـا ربـيـع!»
(أُغنية فيروزيّة)

في السنوات الرومانسيّة من صباي قرأت رواية ديكنز، «قصة مدينتين». واستبطلت سدني كارتن الذي ضحّى بحياته لإنقاذ زوج المرأة التي أحبّها، حين بادله اللباس والمكان في الباستيل، وتحت شفرة المقصلة.

ومثل غيري من الناس لم يصمد بطل من أبطالي للبلى. بل أقبلوا وأدبروا مع إقبال العمر ومع إدباره، حتى لم يبقَ لي بطل سوى فيلسوف هيچو، چرنچوار الأفّاق البائس، في «أحدب نوتردام»، الذي، حين طلبوا منه المبادلة نفسها لإنقاذ إزمرالده، الغجريّة الحسناء، ورفض، فسُئل عمّا يجعله شديد التعلّق بالحياة، أجاب: «سعادتي الكبرى في قضاء الأيام كلها، من الصباح إلى المساء، مع رجل عبقري هو أنا. وهذا شيء جميل جدًا».

– والعروبة؟

– هلا أقلعت عن العتاب والتهكّم في مقابلتنا الأُولى هذه، بعد انقطاعي عنك عشرين عامًا!

وهذا ما أردته بالضبط حين ذكّرت الأُستاذ «م» بالعروبة، وقد فاجأني بزيارة ليلية أثارت دهشتي، وأثارت شكوكي، ورجاني أن أستمع إليه ببال طويل.

لقد كنّا صديقين حميمين في سنوات الابتدائية فالثانوية. وكنّا، سوية، مؤسسي الجمعية السريّة الأُولى في مدرستنا

الابتدائية لمحاربة الإنجليز، التي لم يكن فيها سوى العضوين المؤسسين. ولم تترك أثرًا سوى عادة التدخين المزمنة والتي اعتبرناها من مقتضيات العمل السرّي. ولبسنا النظارات الشمسيّة السوداء، إخفاءً لدموع الرجال، حين احتفلنا بإنهاء الدراسة الثانوية، وتوادعنا وتواعدنا.

إذ افترقت طرقنا فيما بعد. فسافر «م» إلى القدس لإنهاء دراسته في الكلية العربية. ثم رجع إلى بلدنا حيث عمل مدرسًا للإنجليزية في مدرستها الثانوية ولا يزال في هذه الوظيفة حتى الآن.

ومنذ أن قامت إسرائيل، انقطعت صلتي به انقطاعًا تامًا. وحتى المرحبا أخذ يتحاشاها حين نلتقي عَرَضًا في الطريق. وكانت آلمتني هذه القطيعة في بدايتها، حتى تعوّدت عليها، وأسقطتُه من حياتي مدركًا أنه من ذلك النوع من الناس، أشبه ما يكون بامرأة كانت في عزوبيتها لا تقوم عن قراءة قصة حتى تقع على غيرها، فلمّا وجدت الزوج، لم تعد تقرأ شيئًا، ولا قصاصات الجرائد في دورة المياه.

وصاحبنا، الذي كنت وإيّاه نتنغّم سويّة بفتوحات خالد بن الوليد، وبمراثي المتنبّي، وبكفرانيّات أبي العلاء – العروبة، قد تزوّج الوظيفة. فكيف وشأنه أن يحافظ عليها في إسرائيل، حيث من مستلزمات ذلك أن تنكر كل صلة بصديقك

وبقريبك إذا كان من المشاغبين على السلطة، ولو كان أخاك ابن أُمك وأبيك؟

ثم طرق بابي فجأة، في ذات ليلة من الليالي التي أطبقت بعد حرب الأيام الستّة. وقعد قبالتي بعد قطيعة عشرين عامًا. وقال:

– استمع إلي حتى النهاية..

فما الذي حطّ في قلبه أسدًا، فتجرّأ على زيارتي؟

ووصل الأُستاذ «م» ما انقطع من حديثه:

– سقط سدني كارتن من ألبوم أبطالي مع شعرات شفرتي الأُولى. ولكن عنوان رواية ديكنز – «قصة مدينتين» – ظلّ يلاحقني ويسحرني ويؤثّر على ذوقي طوال هذه السنين الطويلة. وكان هذا التأثير يظهر بأشكال حيّرتني في بادئ الأمر. ثم استسلمت له. بل أصبحت أحمله معي عاطفًا عليه، مُعزًّا له كما يحمل إنسان تعويذة كانت والدته علّقتها بعنقه منذ الطفولة.

وفي بداية عهدي بهذا التأثُّر الغريب شرعت في كتابة «قصة مدينتين» من تأليفي، مدينتين من بلادنا، حيفا والناصرة. وكتبت فصلها الأوّل، فإذا القصة تنتهي به، فطرحتها. ثم قرّرت أن أتخصّص في موضوعين: الإنجليزية والمحاماة. ولكنني لم أفعل. وعالجت قرض الشعر بالإنجليزية وبالعربية،

فقرضت الهواء، باللغتين معًا. ويؤلمني أنني لم أُنجب سوى ولد واحد، فإنني راغب في ولدين اثنين رغبة شديدة. وعليك أن تسأل ابنك الذي أُعلّمه في المدرسة الثانوية، فيخبرك أنني لا أُعطيهم للقراءة سوى كتابين معًا، وشاعرين للحفظ، وأدبين للمقارنة، وساعتين للامتحان. وأشياء أُخرى في حياتي، لا ضرورة إلى ذكرها، تؤكد سيطرة هذه الازدواجية، في ذلك العنوان السحري - «قصة مدينتين» - على ذوقي وعلى عقلي. ولكنك، ولا شكّ، لاحظت هذا الأمر حين كنّا صديقين في شبابنا. هل نسيت أنكم كنتم تلقبونني بأبي الذقنين؟

- كنت ضخمًا ومنتفخ الوجنتين..

- لا. بل كنت مثلكم بذقن واحدة. وأما هذا اللقب فعلق بي لأنني كنت أُحب ترديد القول: «لا تهمّني ذقن ممشّطة أو ذقن مخطّطة»: ذقنان، ذقن رجل وذقن امرأة، اثنان، «قصة مدينتين». هذه هي الازدواجية، تعويذتي التي حملتها حول عنقي منذ الصبا.

(إن صاحبي القديم هذا إنسان مريب، في هندامه وفي كلامه. وهو مسرف في حديثه دون تكلُّف. فتركته على هواه كما عوّدته فيما مضى. خصوصًا وأنني دُهشت من زيارته المفاجئة، وأردت أن أستشفّ غرضه من هذه الزيارة. ولقد

اعتقدت أنني بدأت أفهم غرضه. قلت في نفسي: أحد أمرين – إما أن وازعًا من ضميره أيقظته الحرب فدفعه الآن، بعد عشرين عامًا، إلى تبرير انقطاعه عنّي بهذه الازدواجية. وإما أن واحدًا ما قد أرسله إليَّ لأمر ما، وهو يريد أن يستردّ صداقتي بالحديث عن هذه الازدواجية السحريّة. فاحترست منه وتشوّقت إلى نهاية حديثه).

فقال:

– لذلك لم تطل دهشتي حين ارتقت بنا السيارة، لأوّل مرة بعد حرب حزيران، في منعطفات طلعة اللُّبّن اللولبية، في الطريق من نابلس إلى رام اللّه.

فلتت منّي شهقة حين عبرنا المنعطف الأول، وارتجّ لساني ومقوَد السيّارة في يدي. وهتفتُ بزملائي الذين كانوا معي في السيارة: عشرين عامًا وأنا أحلم بهذه المنعطفات اللولبيّة. هذه الطلعة لم تغب عن ذاكرتي يومًا واحدًا. إني أتذكّر كل منعطف فيها. هي أربعة فعدُّوها. وهذه الجبال المشرئبّة تحرس السهل الأخضر. هي عشرة فعُدّوها. وهذا الهواء النقيّ. هذا الأريج أعرفه. إني أستنشق رائحة رافقتني طوال العمر. هذا المكان مكاني!.

(فهمت الآن لماذا جاء هذا المسكين إليَّ بعد انقطاع عشرين عامًا. يا لصديق الصبا. كم قسا الدهر علينا! عذرًا على

شكوكي. وكدت أقوم كي أُعانقه. ولكنه لم يمهلني).

فلم ينقطع الأُستاذ «م» عن حديثه:

– بعد إلحاحي، رضِيَ زملائي بأن أُوقف السيارة عند المنعطف الأخير، الرابع. ونزلوا معي لنستنشق ذلك الهواء، ولنملأ عيوننا بمشهد الجبال والسهل المحروس. وأشجار اللوز تملأ السهل والجبل. أما كان أجدر بهم أن يسموّها منعطفات اللوز؟ وكان شيء في داخلي يدعوني إلى السجود. وكان شيء في عيني يذوب دمعًا. وشعرت شعور المشاهد لأشياء عجيبة تقع أمام ناظريه. وكأني أحيا مرة ثانية سِنِي شبابي الماضية، في مراتع صباي، لا أراها فقط بل أحياها، وأستنشق هواءها وأُحسّ بدماء الصبا، مع رائحة الطابون والقطّين، تجري مشبوبة في عروقي.

ولكن زملائي لم يمهلوني، وسرعان ما أسقطوني من شواهق منعطفاتي إلى واقعي في الحضيض. هذا يريد متابعة السفر حالاً لأن تصاريحنا لا تنصّ على أنه يسمح لنا بالنزول في طلعة اللُّبّن. وهذا يتهكّم على ذكرياتي عن هذه الطلعة بأنني في يوم من الأيام، قبل عشرين عامًا، قد بوّلت في أحد منعطفاتها. وغير ذلك من الكلام الذي ألفناه نحن الأساتذة حين نبتعد عن طلابنا وعن زوجاتنا.

وبقيتُ طول الطريق إلى رام اللّه فالقدس فبيت لحم، وفي

العودة، أهجس بهذا الأمر المدهش، وأسترحم ذاكرتي أن تستعيد ما وقع لي من أمر، في شبابي، في هذه الطلعة، جعلني أقف مأخوذًا أمامها، لا أُريد مفارقتها أبدًا.

ولكن دون جدوى. حتى وصلنا إليها في العودة فهبطناها دون توقُّف. فرآني أحد زملائي مهمومًا. فوضع يده على كتفي مواسيًا، وقال: هي شبيهة بطلعة العبهرية، في الطريق من الناصرة إلى حيفا، فلعلّ الأمر اختلط عليك.

فرفع حجرًا ثقيلاً عن صدري.

منذ حوالي عشرين عامًا وأنا أُسافر إلى حيفا مرتين في الأُسبوع، حيث أُقدّم دروسًا إضافية في إحدى مدارسها الثانوية، فأمرّ بطلعة العبهرية ذهابًا وإيابًا. أقنعني زميلي بهذا التفسير البسيط، مع علمي بانعدام الشبه بين الطلعتين، لأنني أعرف سرّ نفسي وضعفي بقصة المدينتين. لا شكّ في أن طلعة العبهرية ارتبطت دائمًا في مخيّلتي بطلعة اللُّبّن. قبلت هذا التفسير، وأزحت عبئًا ثقيلاً عن صدري.

(يا للإنسان! أيذبح في ذاكرته ذكريات لا يقوى على احتمالها؟ كنت أحسب أن فاقدي الضمير تتحجّر قلوبهم، فلا يشعرون بتأنيبه. فإذا الأمر مختلف. وإذا الإنسان أعجز من أن يقتل ضميره، فيقتل الذاكرة! إذن، لماذا جاء يحدّثني بهذه الحكاية؟).

وقال صاحبي القديم:

– تذكر أن لي معارف وأصدقاء عديدين في الضفة الغربية. من أيام الدراسة وفيما بعد. أساتذة ومحامون وأطباء ورجال أعمال وسياسيون ووزير ومستوزرون. ولقد زرتهم جميعًا. ووصلنا ما انقطع من ذكريات ومن صداقة. وعادوا كما كانوا قبل عشرين عامًا جزءًا عزيزًا من حياتي. ولا يمضي أُسبوع إلاّ وأزور أحدهم أو يزورني. كنت في الماضي توهّمت أنهم نسوني، واستحوا بي، وأنهم قطعونا من شجرة حياتهم كما يقلّم الفرع الجاف لتنمو الشجرة وتورق.

– ولكننا فرع أورقته الحياة.

– صدقت. جئتهم في بادئ الأمر متعثرًا، غير متأكد من استقبالهم. فوجدت ما لم أكن أتوقعه من حنين إلى صداقة قديمة، ومن اعتزاز بها. وجدت أنهم كانوا يتتبّعون أخبارنا. وكانوا يلتقطونها من فم الطير. ووجدت أنهم يضعوننا أعلى من الموضع الذي وضعنا أنفسنا فيه. وكنتُ رغبتُ في أن أُخفي عنهم انطوائي في الصَدَفة عشرين عامًا. فإذا بهم يعرفون ذلك ويبررونه بالشدّة، ويروننني على غير ما أرى نفسي. لقد رفعوا من قدري فارتفعت. وشالوني فطالت قامتي، فأصبح رأسي فوق الضربات.

ولذلك قلت لك إنهم عادوا جزءًا عزيزًا من حياتي، تلك

التي عرفتها أنت قبل عشرين عامًا.

– فهل زرتني الليلة بقامتك الطويلة، علنًا؟

– وهل أستطيع أن أزورك إلاّ علنًا!

– وهل، لهذا، زرتني؟

– لا.. بل لأمر يقلقني ويؤرّقني. قلت لك إن دهشتي لم تطُل حين أهاجتني طلعة اللُّبّن ومنعطفاتها. فقد أعدت شعوري هذا إلى تعويذتي التي لازمتني طول حياتي، إلى ازدواجيّة تفكيري ومنطقي، وإلى اتّصالي المستمر بطلعة أُخرى، هي طلعة العبهرية.

وصعدت منعطفات اللُّبّن وهبطتها عشرات المرات منذ ذلك الوقت. وحين كان الحنين الآسي الغريب إليها يدهمني، كنت أُعلّله حالاً وأُريّح ضميري.

حتى جاء ذلك اليوم من أيام شباط الماضي، حين عدت مع زوجتي وولدي من زيارة أصدقاء لنا في القدس القديمة. وكان الوقت ظهراً حين بدأنا نهبط إلى منعطفات اللُّبّن. وكانت براعم اللوز تتفتّح. وألوانها البيضاء والحمراء تتعانق في نشوة ربيعيّة، ورقصت الجبال العشرة كلها.

– بأية لغّة نظمت هذه القصيدة؟

– بلغة عيني وبلغة قلبي. وستسمعني حتى النهاية.

وظلّت زوجتي تلحّ عليَّ بأن أُوقف السيارة، حتى تلتقط

أغصان لوز منوّرة تزين بها البيت. ولم أرضخ لطلبها إلاّ في المنعطف الأخير الأدنى، حيث تقوم شجرة عتيقة أعتقد أنها كانت موجودة أيضًا في أيامي السابقة.

فنزلنا وقطعنا أربعة أغصان ابتسمت لنا وابتسمنا لها.

وحين سألتني زوجتي: هل إذا زرع غصن اللوز في التراب ينمو شجرة، انقبضَ صدري وبدأت أتذكّر.

هل تذكر أنه في مطلع شبابنا كان لنا صديق، أحبّ فتاة من القدس أو من بيت لحم، من هناك، وكنّا نحب حبه؟

– كلنا أحبّ، وكنّا نحب حبه.

– بل هذا الصديق كان حبّه أجمل من حبِّنا، وكانت له قصة. وكنّا في رحلة. ونزلنا أمام تلك الشجرة في باب طلعة اللُّبّن. وكان هناك بيت. وكان فيه دجاج وأبقار. والبيت لا يزال قائمًا، ولكنني لا أرى الدجاج ولا أرى الأبقار. واستسقينا سكانه ماء. وإذا بفتيات، في رحلة من القدس، وهنّ يقطعن أغصان اللوز المنوّر. وكانت بينهن صاحبة صاحبنا.

– وماذا بعد؟

– إني أذكر عنه قصة جميلة. لا أدري الآن كيف وصلت إليَّ. فصاحبته قطعت فرعًا من الغصن وقدمته إليه واستبقت الفرع الآخر. وتعاهدا على أن يحتفظا كلٌّ بفرعه، وأن يلتقيا

في الربيع القادم، حين ينوّر اللوز، فيأتي بأهله ويخطبها من أهلها. فكيف كانت نهاية قصتهما الجميلة؟

– وما اهتمامك كل هذا الاهتمام بأمرهما؟

– لست أدري. ولكنني أحسب أن دافعًا قويًا يدفعني إلى أن أفتح صفحات صداقاتي القديمة، كلّها. كأنما أُريد أن أشد حاضري إلى روابط ماضيّ، كلّها، حتى لا تنفصم أبدًا مرة ثانية. كان ذلك الماضي فيّاضًا بالأمل. وكان يحتضن الدنيا وما فيها. وكان نقيًّا مفتوحًا كعيني طفل. وكأنني اليوم أُريد أن أتعلّق بخيوطه حتى أنتشل نفسي من هذا الحاضر. فهل تراني غريقًا أتعلّق بحبال الهواء؟

– ثم ماذا؟

– منذ حرب حزيران وأنا أتجوّل كالملهوف بحثًا عن الأصدقاء القدامى. وكلما التقيت بأحدهم تأجّجت لهفتي إلى لُقيا الآخرين. ومنذ أن تذكّرت قصة صاحبنا هذا وأنا أُفتّش عليه، وأبحث عنه، فلا يذكر أحد من أصدقائي قصته. وقد أوقعتني هذه اللّهفة في مآزق. وكدت أن لا ألقى صديقًا من أصدقائي القدامى إلاّ وألحّ عليه بأن يخبرني كيف تعرّف على زوجته! ولم يبقَ من أصدقاء الصِّبا مَن لم أسأله عن صاحبنا هذا سواك. لذلك جئت إليك. فهل تذكره وتريحني؟

– كنتَ دائمًا غريب الأطوار يا صاحبي. ولكنك الليلة

أغرب ما كنت. فما هذه اللّهفة على معرفة أمر جانبيّ؟

– تقول: جانبيّ! إنني أدرك الآن أنني ما انطويت في صَدَفَتي، واحدودب ظهري، إلاّ حين قطعت الصلة بماضيٍّ. وما هو هذا الماضي؟ إن الماضي ليس زمنًا. إن الماضي هو أنت وفلان وفلان وجميع الأصدقاء. سوية رسمنا لوحة هذا الماضي. وكل منّا لوّنها بلونه الخاص، حتى جاءت على صورتها الشابّة المشتعلة التي عانقت الدنيا وما فيها. ولن أُعيد الصلة بهذا الماضي إلاّ إذا تكاملت أجزاء اللوحة بجميع ألوانها. وصاحبنا هذا، بحبه الجميل، أراه الابتسامة في ثغر هذه اللوحة. أيّ ماضٍ يبقى بدونه؟ وماذا يبقى من لوحة الجيوكنده إذا مسحت ابتسامتها؟.. إن قصته، التي سيكون اللقاء، عودة الحبيب إلى حبيبته، خاتمتها المفرحة، والتي سيكون الفراق المزمن خاتمتها المحزنة، أراها أصدق تعبير عن ربيعية ماضينا، الذي أُريده أن يعود كما يعود الربيع بعد كل شتاء.

– أراك تعود إلى قصة المدينتين، الفرعين، المحبّ وحبيبته، النهاية المفرحة والنهاية المحزنة. أما الحياة فهي ليست خطوطًا متمايزة بل هي خطوط متشابكة. فلماذا لا يكون خيالك، الذي أيقظه حنين ربيعي إلى جبال شامخة، قد توهَّم هذه الحكاية؟

– لقد استيقظ خيالي حقًا، ولا أُريده أن ينام مرة أُخرى. لذلك أبحث عن صاحبي هذا. فهل أفهم أنك لا تتذكّره؟

– دعني أُحاول. فإذا تذكرته أبلغتك الأمر.

وتركني الأُستاذ «م» وهو مهموم كما لم أره مهمومًا في حياتي. وبقيت مكاني مهمومًا كما لم أكن مهمومًا في حياتي. ولعدّة دقائق بعد خروجه أمسكت بنفسي قسرًا عن اللحاق به حتى أهزّ ذاكرته من موتها.

ولكن، هل أستطيع إحياء الأموات؟

كيف لا أتذكّر قصة الحب الجميلة التي يتلهّف الأُستاذ «م» على تذكّر صاحبها. وكم مرّة سألت نفسي: كيف يستطيع إنسان أن يقتل في قلبه مثل هذا الحب؟

وبعد حرب حزيران، حين زرت السيدة الكريمة، الوفيّة، في القدس أو في بيت لحم، هناك، على حد تعبير الأُستاذ «م»، وأرتني غصن اللوز الجاف، الذي لا تزال تحتفظ به، ويكاد يشتعل بالأحمر وبالأبيض حين تستعيد قصته، وأخبرتني أنه زارها مع عدد من زملائه المعلمين، وكان طول الوقت كثير الكلام وشديد الحبور، وأنها أدخلتهم إلى مكتبتها ليروا مجموعة الكتب والتُّحَف التي جمعتها، وأنه لحظ غصن اللوز الجاف، فسألها ما هو، فأخبرته أن اللوز ينوّر في شباط، فانتقل يحدّثها عن المشمش وعن الجمعة

المشمشيّة، دهشت لهذا الأمر أشدّ دهشة.

ولكنني الآن، وبعد أن زارني الأُستاذ «م»، وحدّثني بكل ما حدّثني به، فهمت كل شيء.

فإني واثق بأن الأُستاذ «م» صادق في نسيانه وصادق في لهفته على أن يتذكّر. فبإرادة باطنيّة غريبة نسي حقًا أنه هو صاحب قصة الحب الجميلة، والابتسامة التي نوّرت صبانا.

فهل من واجبي أنا أن أُذكره وأُريحه كما طلب منّي؟ ولماذا يجب أن أُريحه؟ وهل سأُريحه حقًا؟..

إذا كانت قامته قد طالت، كما قال لي، فستطول يده هذه القصة، فيقرأ. فهل حينئذ سيتذكّر، فيعيد الروابط بماضيه، فينتشل نفسه من حاضرها؟

وأخيرًا نوّر اللوز فالتقيا. وكان الربيع يضحك. وكان القدر يقهقه.

(٣)

أُم الروبابيكيا

« بالإيمان . . راجعون
للأوطان . . راجعون
راجعون، راجعون، راجعون »

(أُغنية فيروزيّة)

لماذا أدهشكم قولي، فما صدّقتكم، إن قطيعة عشرين عامًا تُنسي الإنسان نفسه؟ وهل هي قطيعة بوعي؟! الآن أصبح شعراؤنا ملء العين والخاطر. وأصبحوا يتدفّأون بصمودهم. وصاروا ينتسبون إليهم – «أُولئك آبائي..» فكيف قابلوهم قبل مذراة الخامس من حزيران، حين أنشد شاعرنا نشيد العودة الأول – «بلادي تُرى، أعود أرى، ديار الحمى مهد صباي»؟ صاحوا في وجوهنا: ما لكم ولهذا يا قُعَداء، ألم ترفضوا الهجرة معنا إلى يثرب؟!

ولماذا تبربرون الآن على «أُم الروبابيكيا»، في شارع الوادي في حيفا، وترفضون أن تصدّقوا ما تقوله لكم من أنها تشتري كل فراش منهوب من الهضبة(*)، وكل خزانة عتيقة، وكل صندوق، لعلها أن تجد الكنز الذي تبحث عنه؟

غير معقول!

وهل هذا هو الأمر غير المعقول الوحيد الذي يجري في بلادنا؟

تستهجنون من «أُم الروبابيكيا» أنها تشتري جميع دواشك القنيطرة، وتقبلون من السلطات أن ترسي مزاد القنيطرة – بكل ما بقي فيها من أثاث، صحون قهوة وجران كبّة، فَراشي أسنان ونسّافات عث، كتب الفارابي ولفائف المراحيض – على مقاول ذي مال أو ذي دالّة، وتُخْلي له ساحة لصق عمارة

الشرطة، ومخازن من مخازنها، يعرض فيها بضاعته على الشارين؟

وهل كان الأمر أصبح معقولاً لو أنها أخلَت له ساحة في «معرض الشرق» في عنق تل أبيب؟!

أنا أعرف أن أحداً لم يقرر أن يقاطع «معرض المنهوبات» هذا. ولكن أحداً لا يقربه. فلا العرب يقربونه ولا اليهود. هذا من ورع وذاك من جزع، وأُخريات لأن موضته قديمة. والمقاول يحلف الأيمان، بجميع اللغات المتداولة في حوض البحر الأبيض المتوسط، من الشام لتطوان، أن بيته خرب، ولا شأن له بخراب البيوت في الهضبة.. إلاّ «أُم الروبابيكيا»..

الآن أصبح هذا هو لقبها. وأصبحتم تبربرون فيما بينكم بأنها عريقة في النّهب، وبأنها سنة ١٩٤٨ نهبت سجاجيد شارع عباس، وسكنت في «القصر» الذي نزح عنه أبو معروف، صاحب حانوت «العشرة بقرش» في سوق الشوام في حيفا أيام زمان.

هل رأيتم في وادي النسناس قصوراً؟ من حظ هذه الأطلال أنها تقوم في وادٍ يحميها من رطوبة البحر المالح.. ألَم تشرّفوا «قصور» عكا القديمة، فتدقّ جدرانها النّوبة لكم، هذه الجدران التي لم يستطع سور أحمد أن يصونها؟.. ألا تخجلون؟!

كنتم في الماضي تتلقفون كل سبب، وتختلقون الأسباب كي تقرعوا بابها، فتقدم لكم القهوة، وابتسامتها اللطيفة. وكنتم تلقبونها، فيما بينكم، بملكة الوادي غير المتوّجة. وكانت منذ ذلك الوقت تبحث عن الكنز في الدواشك، فما رأيتم غضاضة في ذلك. فما بالكم الآن تبربرون عليها وقد انشقّت أمامها أرض الكنوز مرة ثانية؟

إني أعرفها أكثر مما تعرفونها.

لقد أصرّت على البقاء مع والدتها المقعدَة حين نزح زوجها وأخذ أولادهما معه، في سفر الخروج الأول. وحين تُوفيت والدتها، بعد خمس سنين من ذلك، سمعنا أن زوجها رفض التعرّف عليها، ولا يرغب في أن تعود إليه. ولم تصدّقوا ما كانت تقوله لكم من أنها هي أيضًا لا ترغب في أن تهجر بيتها. وكنتم تتغامزون عليها. وكنتم تبربرون بأن في الأمر حكاية حب، ومن غير المعقول أن تبقى في الوادي لغير هذا السبب. هلا أجبتموني، إذن، لماذا كان من المعقول بقاؤكم أنتم أنفسكم؟

إني أعرفها أكثر ممّا تعرفونها.

كانت تبيع ما سحبت يداها من سجاجيد، ومن كراسيّ، ومن مرايا. وكانت تفتح الدوشك وتبحث فيه عن الكنز. ثم تطويه وتبيعه. وربما وجدت شيئًا. ويومًا زرتها، وكانت

متربّعة على الأرض، وصوف دوشك مبعثر أمامها. وكانت في يدها رسالة تقرأ فيها وتنشج.. فاستوضحتها الأمر. فقالت: تذكّرت أولادي.

– وهذه الرسالة؟

قالت: واحدة من رزمة رسائل كان شاب يرسلها، على ما يظهر، إلى فتاته، فكانت تخفيها في خرق فتحته في الدوشك.

ثم مسحت دموعها، وهتفت: كنوزي، كنوزي!

وكانت تعيش على ما تجمعه من أثمان ما تبيعه من أثاث البيت، وتقدِّم القهوة لكم، وترفض هداياكم.

وكانت إذا دخلتم في الشعر، دخلت فيه. وكنتم تسرعون إلى إكمال بيت إذا لم يأتِها سوى شطره الأول. وكنتم تهمهمون استحسانًا – لؤمًا – إذا روت بيتًا وقد كسرته.

وإذا دخلتم في السياسة كانت أشدّكم حماسًا ورغبة في أداء مهمة. فإذا اعتقل أحدكم كانت أسرع من أُمه إلى زيارته، وحمل الطعام إليه، وغسل قمصانه.

عشرون سنة أكلت نيرانها ما اختزنته من حطب سفينتها المبحرة نحو كنوز الملك سليمان. كل شيء باعته سوى كنوزها. وهذه النيران أحرقت شعرها، فشاب. ولكن ابتسامتها بقيت خضراء لم تفحمها النيران. لو كنتم تحفلون

بابتسامتها كما تحفلون الآن بالبربرة عليها.

لقد علمت أنكم رأيتموني وأنا أزورها أخيرًا. فهل ستبربرون بزيارتي أيضًا؟

حين سمعت بربرتكم ولَخاكم، أسرعتُ إليها. وحين تهامستم بأنها الوحيدة التي تطرق «معرض المنهوبات» الكاسد، أسرعتُ إليها. وحين سمعت أن ملكة الوادي غير المتوّجة أصبحت، في أفواهكم، «أُم الروبابيكيا»، أسرعتُ إليها.

واستقبلتني كأن شيئًا لم يكن. وكان صوف دوشك مبعثرًا في باحة دارها.

قلت: هل عدت إلى التنجيد؟ فابتسمت ابتسامتها الخضراء.

قلت: فهل تبكين وحدك؟

فهتفت: لم أعد وحدي.

قلت: مع كنوزك؟

فهتفت: بل مع أصحابها. إنهم يعودون، يعودون.

ورفعت رأسها اعتزازًا: أتعرف أنهم في حاجة إليَّ بعد نسيان عشرين عامًا؟

ورفعت رأسها اعتذارًا: إنهم في حاجة إليّ!

وأنتم، هل تتوهّمون أنني أكتب عنها دون استئذانها؟ إذا

ظننتم بي هذا الظن فإنكم لمخطئون.

لا تعرفون عنها، مثلاً، أنها وجدت أحد أولادها معتقلاً في سجن الرملة، متهمًا بتوزيع منشورات في القدس القديمة.

ولا تعرفون عنها أن زوجها زارها من لبنان، عبر الجسر، وتباحث معها فيما تستطيع أن تقدمه من مساعدة على تسريح ابنهما المعتقل، وهو طبيب متحمّس. وهي تتحدث عن حماسه بحماسة أشدّ منها. وكأنّما تريد أن تقول: هؤلاء أولادي، فأين أنتم؟

وتتحدّث عن زوجها بحبّ وبإعجاب. فقد ربّى ابنها الطبيب الشاب المتحمّس.

وتتحدّث بإعجاب عن نفسها، وأنها تعاقدت مع المقاول المفلس، صاحب «معرض المنهوبات»، على أن تأخذ ما تشاء من بضاعة بالمناصفة، وأنها تبيعها وتأكل من ثمنها، وتزور ولدها، وأنها أوقفت له محاميًا ذا صلات، وأنها تزور ولدها وتحمل له السجائر، وتغسل قمصانه – «كما كنت أغسل قمصانكم».

ثم خفضت بصرها وسألتني باستحياء: ألم تلتقِ الأشباح الهائمة؟

– الأشباح الهائمة؟

– رجال ونساء، من غزة، ومن الضفة الغربية، ومن عمان،

بل حتى من الكويت، عبر الجسر، يعبرون أزقتنا في صمت، ويتطلّعون نحو الشرفات والنوافذ في صمت. وبعضهم يطرق الأبواب ويسأل في أدب أن يدخل ليلقي نظرة وليشرب جرعة ماء، ثم يمضي في صمت. فقد كان هذا بيته.

وبعضهم يقابله سكان البيت بابتسامة شفقة. وبعضهم يقابله سكان البيت بابتسامة شقاء. وبعضهم يدخلونه البيت. وبعضهم لا يفتحون الباب في وجهه.

وبعضهم لا يطرق الأبواب بل يجول بعينيه باحثًا عن صاحب سحنة سمراء عابر، فيستوقفه، فيسأله: هل كان يقوم هنا بيت من حجارة مكحّلة؟ فإما أن يقف عابر السبيل، صاحب السحنة السمراء، ويستذكر، ويتذكّر. وإما أن يقول له: لقد وُلدتُ بعدها يا عمّاه!

أما بيتي فلا تزوره هذه الأشباح الهائمة. إنهم لم يسمعوا بكنوزي. فهلاّ كتبت في جريدتك عن كنوزي التي احتضنَتها صدور دواشكي؟

لديّ حزمات من أنوار الصِّبا، رسائل الحب الأوّل. لديّ قصائد خبّأها فتيان بين أوراق كتب مدرسيّة. لديّ أساور وأقراط وغويشات. لديّ عقود تتعلّق بها قلوب ذهبيّة إذا فتحتها وجدت في القلب الذهبي صورتين: له ولها. لديّ يوميّات، بخطوط دقيقة حييّة، وبخطوط عريضة واثقة، عن

تساؤلات: ماذا يريد منّي؟ وعن أيمان مُغْلَظَة: يا وطن!

فهل تعدني بأن تكتب عن كنوزي حتى تهتدي الأشباح الهائمة إليَّ؟

فلمّا وعدتها قامت وذهبت إلى صندوق عتيق، فأخرجت منه حزمة أوراق بالية. ثم مدتها إليّ وقالت: هذه هدية منّي إليك.

– ما هي؟

– رسائل كنت أكتبها ولا أُرسلها إلى صاحبها. ومنها تعرف لماذا بقيتُ في الوادي.

– ولماذا الآن فقط؟

– لأنني الآن فقط أستطيع أن أكون معكم جميعًا: أنتم أولادي. فلا تتركوني مرة ثانية.

حين كنّا أطفالاً كنّا لا ننام حتى تروي جدّتي لنا حكاية من حكاياتها.

وكانت قد تجاوزت التسعين. وكان اختلط الأمر عليها. فتبدأ حكاية الشاطر حسن من وسطها:

– وأخذ الشاطر حسن عصاه السحرية وضرب بها المارد.

– أية عصا سحرية يا جدتي؟..

فلا تنتبه لصيحاتنا. وتستمر في حكايتها. وما من مرّة ظللنا فيها مستيقظين حتى نهاية الحكاية، وما من مرّة نامت

بعد أن تتم الحكاية. فما عرفنا لحكاية الشاطر حسن بداية، وما عرفنا لها نهاية.

وحين كبرنا صرنا نتذكّر جدتي وحكايتها التي أسميناها البتراء، فنغرق في الضحك.

كأنما الأمر المعقول هو أن تكون للقصة بداية، وأن تكون لها نهاية.

هل هذا هو الأمر المعقول حقًا؟

وحتى لو كان هذا هو المعقول؟ فهل هو المعقول في بلادنا؟

فلماذا، إذن، يجب أن أُخبركم بما قرأته في رسائل «أم الروبابيكيا» التي أهدتها إليَّ مؤخرًا؟

ألا يحقّ أن أُبقي بينها وبيني سرًّا واحدًا؟

لتظلّ هذه القصة بتراء حتى نكتب نهايتها سويةً.

(*) هضبة الجولان.

(٤)

العودة

« البيت لنا والقدس لنا
وبأيدينا سنعيد بهاء القدس
بأيدينا للقدس
سلام آت آت آت »

(أُغنية فيروزيّة)

(هذه قصة المظاهرات التي قامت في القدس القديمة في يوم
٥ حزيران ١٩٦٨، لمناسبة مرور عام على حرب حزيران)

١ – كيف ظهر في شهور السنة شهر جديد هو حزيران الثاني؟

في «الجمعة العظيمة» ينتظم نصارى القدس في مسيرة تقليدية، وراء صليب خشبي كبير، إلى الجُلجُثة – على طريق الآلام التاريخية..

وعبرت مع صاحبي المقدسيّ الطريق التي عبرها أُلوف الشبّان والشّابات، في «الأربعاء العظيمة»، في الخامس من حزيران الثاني(*) – من ساحة المسجد الأقصى إلى مقبرة اليوسفية، حيث سجَّوا باقات الزهور على قبور الشهداء.

وأما الصليب الخشبيّ فقد حملناه على أكتافنا.

٢ – ما هو السر العجيب في اسم «الغزلان»؟

سرنا، وأخذ صاحبي المقدسيّ يعرّفني بمعالم القدس القديمة:

– بدأوا التجمُّع هنا، في ساحة الحرم حوالي الكأس (أسُورْ – ممنوع – يا خواجة، أو تخلع حذاءك).

وانتظم الفتيان والفتيات، اثنين اثنين، يحملون فيما بينهم الأكاليل وباقات الزهور. وأمام الجمع المنتظم رجلان. هذا يحمل مصحفًا وذاك يحمل إنجيلاً.

تفضّل من هنا. هذا هو باب السلسلة، ومنه خرج الجمع.

نعم. كان الباب مفتوحًا على مصراعيه.

لا.. ليس هذا قبر وليّ، بل هو سبيل ماء مظلّل بقبّة قديمة.

(وعليكم السلام. الأخ؟ من الناصرة. صحفي. نعم، نعم، من «الاتحاد» – لا بد أن تنفرج).

ساروا صُعُدًا في زقاق باب السلسلة..

نعم. هذا هو الزقاق الذي أعلنت الحكومة عن أنها تنوي توسيعه وتمدينه. وبدأت تُخْلي سكانه لهدم بيوتهم. إلى يسارنا حائط المبكى.

لا. لم يكن الزقاق خاليًا، بل أخذ الناس يتدفّقون عليه من مساربه الجانبيّة وينضمون إلى المسيرة – هنا إلى اليسار، من درجة الطابوني. ومن هنا، إلى يمينك، من خان العطّار.

سِرْ صُعُدًا. هذا إلى يسارك حوش الشاي. تدفّقت منه الجماهير القادمة من حوش الغزلان الذي هدمت بيوته وتبعثر أهلوه.

– الغزلان؟ أي سر في هذا الاسم؟ لدينا قرية قرب الناصرة وفيها أرض باسم «مراح الغزلان». وصودرت. وبيوتهم فيها مهدّدة بالهدم.

٣ – كيف أصبح لشاب واحد ألف أُم؟

ولكن صاحبي المقدسيّ كان مشغولاً بصليبه:

- هنا انعطِفوا نحو اليمين. هذا هو سوق الباشورة. لا.

لا تَسِرْ فيه، بل انعطف معهم نحو اليسار. هذا هو سوق العطّارين.

- ما أشبهه بسوق الشوام السابق في حيفا السالفة.

«وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته. أخونا من الناصرة».

- نعم أنا من مواليد حيفا، وأذكره. دكان نعيم العسل أذكره. وقد أكون دخلت دكانك حدّه. علي؟ كان زميلي. في الكويت؟ سلامات. القدس عالية، فلماذا يجب أن يبتلعها الطوفان؟

- أهلاً. وعليكم السلام. إن شاء اللّه خير. تنفرج.

لا، لم يكن هذا الزقاق على هذا الضيق يوم المسيرة. كانت دكاكينه مقفلة. فما كان أصحابها يجلسون أمامها مثلما يجلسون الآن. لا أحد يشتري ولا أحد يبيع. يدخلون ويخرجون؟ ولكنهم لا يتاجرون بل يتناقلون أخبار الاعتقالات.

- معهم في سوق العطّارين. ها نحن الآن في خان الزيت. إلى يمينك عقبة التكيّة.. ومنها انصبّ جدول.

هذه إلى يسارك عقبة الخانقاه. ومنها جاءوا. وإلى يمينك عقبة المفتي. جاءوا.

هذه عقبة البطيخ وإلى يمينها عقبة التوتة. وتدفّقوا منها.

ومن هذه أيضًا تدفّقوا.

الآن نحن في ساحة العمود الداخلية. لأن الخارجية هي خارج السور. هناك احتشدت الشرطة. وهنا أيضًا ملأت الساحة، خيّالة ورجالة. وتحرشت بهم. ومنعتهم من أن يستمروا في مسيرتهم سوى بضعة من حملة الأكاليل، اثنين اثنين.

ثم اصطدمت بهم.

واختلطوا.

(صهيل. اللّه أكبر. صهيل. أنّات. وقع هراوات. اللّه أكبر).

وجرجرتهم إلى سيارات الشرطة.

وأُم عجوز رأتهم يجرجرون ولدها فصرخت: ولدي!

فانقضوا عليها كي يجرجروها هي أيضًا.

فانشقّ الهتاف من كل جانب: ولدي!

حتى لم يعرفوا أيّهنّ أُمّه.

– كلّهن؟

– أُمّه.

وردّوا بقذف الحجارة من أعالي السطوح القديمة.

وغافلوا الشرطة وعبروا من هنا – سِرْ – من حارة السعديّة. داخل السور، إلى باب الزاهرة – سِرْ – حتى دخلوا المقبرة –

سِرْ – وسجّوا زهورهم.

٤ – كيف أعاد شاعر، في شعره، وحدة قرّائه

حتى إذا خفّفنا الوطء في مقبرة اليوسفية، قال صاحبي المقدسيّ معتذرًا:

– لقد ذبلت الزهور!

فتذكّرت أُغنية بايرون عن محبوبته التي بعث إليها باقة ورد كي يمنح الورد أملاً في أن لا يذبل بين يديها.

ولكنني قلت لصاحبي مواسيًا:

– لا يصلح ذبول الزهر إلاّ في المقابر.

– أما البطاقات المرفقة بالزهور فسطورها لم تذوِ. اقتربْ فتقرأ.

فاقتربت، فقرأت في واحدة:

«هذه أرضي أنا..

وأبي ضحّى هنا..

وأبي قال لنا:

حطّموا أعداءنا»..

وفي أُخرى:

«راجعون»..

وهذه:

«البيت لنا..
والقدس لنا»
وهنا:
«ولا تحسبَنَّ الذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتًا، بل أحياء عند ربِّهم يُرزقون».
وعلى هذا القبر شعار:
«طوبى للحزانى فإنهم يُعَزَّون».
وأوقفني صاحبي أمام شعار كبير على قبر ذي فتحة مثل باب مغارة. وقال: اقرأ. فقرأت على قطعة قماش بيضاء واحدة:
«ولا تحسبَنَّ الذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتًا، بل أحياء عند ربهم يرزقون».
وتحتها مباشرة:
«إلى الأبد ذكراك يا أخانا المستحق الطوبى والدائم الذكر».
وقال صاحبي المقدسيّ:
– وفي اليوم التالي، يوم الخميس، تجمّع ما يزيد على ستة آلاف رجل في ساحة الحرم. وأرادوا السير نحو قبور الشهداء. فاعترضتهم الخيّالة. وكان مفتي القدس وكان مطران القدس يواجهان الحوافر.
وأردت أن أتعرّف على مقدّمي الباقات والأكاليل. أما

بعضهم فلم يذكر اسمًا.

وآخرون كتبوا:

«من أهالي سوق الحصر»..

– هؤلاء هدمت بيوتهم.

«من دار الطفل العربي»..

«من حملة شباب القدس»..

– هؤلاء معلّمو مدارس.

«من بنات شعفاط الإعدادية»..

وفي ورقة منزوعة من دفتر تلميذة قرأت بخط مبتدئة:

«عاشت فلسطين»..

وقرأت مندهشًا:

– عبد الرحيم محمود..؟

– بالطبع ليست الباقة منه. فقد مات سنة ١٩٤٨ إنما هذا بيت من شعره:

ونفس الشهيد لها غايتان

ورود المنايا ونيل المنى

– ما أعجب الأمر. قتل في معركة الشجرة، على طريق طبريا، سنة ١٩٤٨، ودفن في الناصرة، في قبر لا شارة عليه ولا ذكر، ولا نميّزه إلاّ حَدْسًا.

– كذلك قبر هذا الشهيد. لا نعرف لصاحبه اسمًا.

– أما الشاعر فمجهول الإقامة..

– وأما هذا المقام فمجهول الهُويّة..

– شاعر مدفون في الناصرة يكرّم شعره ضريح شهيد في القدس، شعره جمع الشمل..

٥ – العودة

وانتبه صاحبي المقدسيّ إلى أين يسرح تفكيري فابتسم.

ورأيت صاحبي المقدسيّ يسري في مجرى خيالاتي، مثل يمامة تعود في المساء حاملة الحَبَّ إلى عُشّ جوازلها.

– هلا نجلس في ظلّ هذه الشجرة العتيقة!

فجلسنا.

– في بلدكم شاب..

وذكر اسمه.

– أعرفه..

– وطلب يد فتاة من القدس..

– سمعت بالخبر..

– فهل تعرف أنها ابنتي..

– لا..

– وهي في الثانوية..

– لينتظر حتى تنتهي دراستها..

– لقد طردوها لأنها اشتركت في مسيرة الأربعاء.

– فتستطيع أن تتزوّجه..

– ولكنه معتقل هنا..

– كيف؟..

– حمل معها إكليل زهر في مسيرة الأربعاء. فاعتقلوه.

– يا له..

– زارت بلدكم مع أُمها حين كنتم تتظاهرون، في أول أيّار، وتهتفون مطالبين بالانسحاب. فتحمّستا. وانضمّت مع أُمها إلى موكب النساء وهتفت معهنّ.

وأُمه كانت في الموكب. وفرحت بهما. ودعتهما إلى بيتها. وأطعمتهما فتعرّف عليها. وتعرّفت عليه.

وألهبها حماسًا بحكاياته عن تظاهرة قال إنها قامت في بلدكم سنة ١٩٥٨. وقال إن الشرطة اصطدمت بها.

وحدّثها عن رشق أحجار. وعن اعتقالات. وعن نفي. وعن أهازيج شعبية.

فدعته إلى بلدها، على أن يزورنا في الخامس من حزيران.

فأثبتت له أنها هي أيضًا تعرف كيف تقذف الدبَش. فطردوها.

وأثبت لها أن حكاياته عن سنة ١٩٥٨ هي حكايات صادقة. فاعتقلوه.

– فماذا تفعل البنت الآن؟..

– إنها تنتظره أمام باب السجن.

(صحفي من الناصرة يا خالتي. لاجئ من الناصرة مدفون هنا؟.. في الطرف الآخر؟ قرب باب السباط؟ بالطبع سنزوره يا خالتي.. هيّا).

(*) أي الخامس من حزيران ١٩٦٨، الثاني بعد الخامس من حزيران ١٩٦٧.

(٥)

الخرزة الزرقاء وعَودة جبينة

« يـا سـاكـن الـعـالـي طـلّ مـن الـعـالـي
عـيـنَـك عـلـيـنـا عـلـى أراضـيـنـا
رجّـع أُخـوتـنـا وأهـالـيـنـا

عندنا بيوت وسطوحَه عِـلـيّـة ورا عِـلـيّـة
بـوابـهـا مـفـتـوحـة لـلـشـمـس والحـرّيّـة
يـا سـاكـن الـعـالـي طُـلّ مـن الـعـالـي
وطـيـر الحـمـام عـا طـراف الأيـام
قـدرنـا مَـنّـام عـا إيـديـن الـسـلام »

(أُغنية فيروزيّة)

كان الشبان يعودون من نزهتهم المسائيّة التقليدية، في غفلة الليل الأُولى، حين أشرفت سيارتنا على مشاحر قريتنا الجليليّة. فعبقَت رائحة الحطب المكبوت في المشاحر. فهتفت ضيفتنا:

– وصلنا..

وكنت أُطلق بوق السيّارة لأُنبّه الشبّان العائدين من نزهتهم المسائيّة، الذين ما كانوا في حاجة إلى تنبيه. ولكنني كنت أُطلق البوق إعلانًا عن وصول ضيفتنا.

ها هي تعود إلى قريتها، وإلى أُمها العجوز المُقعدة، بعد غياب كان أطول من عشرين عامًا.

ارتحلت مع زوجها وأطفالها إلى لبنان. وها هي تعود، بعد عشرين عامًا، في طريق الجسر، على النهر المقدّس، بإذن أُسبوعي زيارة في بيت أُمها..

وسألت:

– هل بقيت العين كما بقيت المشاحر؟

– بقيت، في الطرف الآخر من القرية، ولكنها نشّفت!

فضحكت ضيفتنا ضحكة حييّة. مسموعة لا مرئيّة، وقالت:

– رجعت جبينة...

فجاء دوري كي أضحك، فلم أقوَ عليه.

هل تعرفون حكاية جبينة، أم طوَتها خرائب الدامون وإقرث؟

عن المرأة القروية العاقر، التي كانت تجبِّن الجبنة، وتطلب من ربّها، ساكن العالي، أن يُطعمها بنتًا بيضاء بدريّة الوجه مثل قرص الجبنة الذي كان بين يديها.

فأطعمها طفلة كانت تقول للقمر قُم حتى أقعد مكانك.

أما «هيچو» فأطلق عليها اسم إزمرالده. وأما المرأة القروية فسمّتها «جبينة». ورَعتها ودلّلتها وألبستها الحرير المطرّز وعلّقت في معصمها خرزة زرقاء. وكان رنين خلخالها، في مشيتها الطروب، ينبئ العجّال عن مقدمها، فيفسح لها الطريق.

ثم – بلا طول سيرة – مثل إزمرالده، خطفها «النَوَرْ». وظلّت والدتها تبحث عنها وتبكيها حتى انهدّت وانطفأ النور في عينيها.

أما جبينة فظلّت تنتقل من يد سيد إلى آخر حتى انتهى مطافها راعية إوز في حقل أمير في بلدة بعيدة، تفصلها سبعة بحور بسبع سنين عن أُمها وأبيها.

وكانت ترعى الإوز وتغنّي حزينة وتقول:

يا طيور طايرة

في الجبال العالية

قولي لُـمّي وبويا
جبينة الغالية
ترعى وزّ
وتمشي غزّ
في الجبال العالية..
وتبكي..

وكان – بلا طول سيرة – أن سمع الأمير الشاب الغناء. فاستوقفه، فانجذب إليه. فعاد في اليوم التالي، فوقع في قلبه. وعاد، سبعة أيام، فوقعت في قلبه، فلم ينَم سبع ليالٍ بطولها.

حتى أطلع والدته على أمره. فانتقلت جبينة، زوجة وأميرة، من الحقل إلى القصر.

وعبرت سنة على جبينة الأميرة. ووضعت رجلاً على رجل وأنجبت صبيًا مثل العجل.

ومضت سنة أُخرى. فقالت جبينة الأميرة لزوجها الأمير:

– البلاد اشتاقت لأهلها.

فحملها على الهودج، بالطِّيب وبالحرير وبالهدايا، حتى أشرفت على عين القرية. فعطش طفلها. فرأت نسوة القرية يتدافعنَ ويتشاجرنَ في باحة عين الماء. فطلبت ماء لطفلها. فأجابتها إحدى النساء: لا ماء في العين. من يوم ما غابت جبينة نشفت العين!

فقالت لها: عودي تجدي الماء.

وهكذا كان، وتدفّق الماء الحبيس في بطن الأرض الكسيرة القلب.

وهمست امرأة في أُذن أُختها: رجعت جبينة!

وانتشر الخبَر. وتراكضت البنات وتراكض الصبيان: رجعت جبينة!

واندفع صبي إلى عقد والدة جبينة، المُقعدة الضريرة، مثل عنزة تطاولت عليها. وكم من عنزة تطاولت عليها. وصاح حتى تسمعه، وكان يلهث حتى تصدّقه: ستّي. ستّي. رجعت جبينة.

فلم تصدقه.

فعاد إلى هودج جبينة مغلوبًا على أمره. فأعطته الخرزة الزرقاء، بعقدها الذي كان يطوّق معصمها الصغير، وقالت: قل لأُم جبينة هذه من جبينة.

فوضعها بين يديها. فشمّت رائحتها. فمسحتها على عينيها، ففاضت دموعها. فرجع النور إليهما.

ثم كان اللقاء.

ولكنني قلت لضيفتنا:

– الهودج الآلي يدخل القرية الآن. فهل تفيض الماء في العين؟

فابتسمت ضيفتنا ابتسامة غير مسموعة وغير مرئيّة.

ودخلنا أزقّة القرية. فسألتها أن ترشدني إلى بيت والدتها، إذا كانت لا تزال تتذكّره.

وقد فعلت.

وكنت أصعد بالسيارة في زقاق ضيّق وهي ترشدني. ثم سمّرتني في مكاني حين هتفت فجأة:

– إحذر الحفرة إلى يسارك في أول الزقاق التالي.

لأن الحفرة كانت هناك، في المكان الذي توقعته جبينة.

وانتبهت إلى دهشتي فقالت:

– لا، لم يبقَ كل شيء على حاله. ها نحن شخنا والعقود شاخت، ولكن الأولاد يملأون السهل والجبل. لا أعرفهم ولا يعرفونني. ولكنني أعتقد أنهم يعرفون أن أُمي المُقعدة لها بنت في الخارج.

وهذا أيضًا كان صحيحًا. فما إن وصلنا أمام دكان تحته بيت والدتها، وكان شاب يهمّ بإقفال الدكان، ورآنا، غرباء، وامرأة غريبة، في ثياب مدنيّة عصريّة، تنزل، في هذه الساعة المتأخّرة في هذا الزقاق المخنوق، حتى اندفع نحونا. ولا أعتقد أنني أخبرته بهُويّة السيدة الغريبة. فإنه بمفرده بدأ يدور على نفسه وينادي جيرانه: رجعت بنت فلانة، رجعت بنت فلانة.

وتراكضت الجارات يستقبلنها. ورأيت العجوز المُقعدة،

في أسفل الدرج، تقف على رجليها. وكانت تحاول أن تسمع، وتحاول أن ترى، وتحاول أن تفهم، وقالوا: هذه والدتها. وكان الظلام دامسًا، وكان الرجال يتصايحون يطلبون من النسوة إحضار اللوكس.

وكانت العجوز الواقفة على رجليها في أسفل الدرج تبتسم ابتسامة لم أرَ مثلها في حياتي، أشبه بآثار موج على رمل شاطئ في ساعة الجزر.

وبين الضوضاء تناهت إلينا زغرودة، مع «آييها»، أوقفت كل حركة، وكتمت كل صوت.

كانت الأُم العجوز تزغرد.

ولكننا لم نفهم من أبياتها شيئًا. وقد لا نكون سمعنا من زغرودتها غير حفيف الشفتين. ولكنني رأيت فوق شفتيها صمدة عروس وهي تتجلّى.

ثم كان اللقاء.

وكنّا لا نزال نعيد الأُم العجوز إلى فراشها، حين دفعتنا جانبًا. واندفعت كاللبؤة نحو صندوق خشبيّ عتيق. وفتحت غطاءه ونبشت فيه، ثم أخذت تخرج ثيابًا قديمة لطفلة في السابعة أو الثامنة من عمرها، وتهمس بصوت مبحوح:

– هذه ثيابك حفظتها لابنتك. فلماذا لم تحضريها معك؟

وأخرجت خرزة زرقاء معلّقة بقلادة ذهبيّة:

– أبوك، اللّه يرحمه، كان دائمًا يقول إنه لو احتفظت بهذه الخرزة لما حدث ما حدث. البسيها ولا تخلعيها أبدًا.

وحين ودّعتُ ضيفتنا، وقد عادت إلى والدتها، قالت لي في استحياء:

– أمّا جبينة الجديدة فلم تكن هي التي احتفظت بالخرزة الزرقاء.

فقلت لها:

– طريقي على عين الماء، في الطرف الآخر من القرية. سأمرّ عليها، لعلها الآن فاضت بالماء.

وعبرت على عين الماء ورفعت يدي محيّيًا. ما كان أحد يراني، فلِمَ لا أُحيّي عين الماء؟

أما الوقوف على عين الماء حتى أرى هل عادت الحياة تدبّ فيه، فأجّلته إلى يوم آخر.

(٦)

الحبُّ في قلبي

«عسى الكرب الذي أمسيت فيه
يكون وراءَه فرج قريبُ
فيأمن خائف ويُفك عانٍ
ويأتي أهلَه النائي الغريبُ!»

(أُغنية لم تُنشدها فيروز)

أُغنية لم تنشدها فيروز كلامًا ولكنها تنشدها دفقًا.

وهذه القصة التي بين أيديكم الآن، أيضًا، لم أكن أنا واضعها، ولكنني أعدت كتابتها مرة، وأعدت كتابتها مرتين وثلاث مرات، حتى أُخفي معالمها عن أصحابها فلا أُشقيهم، فشقيت، وحتى أُخفي معالمها عن حابسيهم فلا أُثيرهم، فثُرت.

ولولا خوفي من أن تخونني بقية العمر لآثرت الإبقاء عليها، طيّ الدفاتر، حتى تتغيّر الحال، فأُطلقها بغير كُحل الخيال على جفون كحلاء.

ولولا خوفي. أيضًا، من أن يطول تلكؤ الحال على حاله..

ما أصعب ميلاد الخيال في قصة تعيش.

فلفحة الألم تعتمل في صدر الكاتب تسعة أشهر، تسعة أعوام، العمر كله، حتى تعصف به آلام المخاض فيلدها قصة، إذا تنفّست هواء أرضنا عاشَت، وأمّا إذا هبطت علينا من كوكب آخر لا يتنفّسون فيه هواء كوكبنا اختنقت ووُلدت ميّتة.

وأصعب منه ميلاد الحقيقة في قصة ملتفحة بالخيال يقيها لسع البرد.

مثل وميض البرق، لا تستطيع أن تحضنه في صدرك شهرًا، ولا تستطيع أن تحضنه لحظة. إما أن يمزّق حجب الظلام

أمامك، فترى ما هو أمامك، وتهتف: إني أرى ما هو أمامي. وإما أن يمزّق أحشاء صدرك تمزيقًا، فلا تعود ترى ما هو أمامك، وتتأوّه.

وحين كنت في ليننچراد هذا الصيف انشقّت سماؤها الصافية عن وميض برق.

كان النهار صحوًا. وكانت طلعة الصبح مبرقة. وأما الغيوم فتلبّدت في عيوننا حين دخلنا الساحة الرحبة، المزهرة بالورد وبشقائق النعمان، الفوّاحة بعطر الريحان والقرنفل وزهور «لا تنسيني»، التي احتوت مدافن ما يزيد على ستمئة ألف من أهالي ليننچراد، الذين مات أكثرهم جوعًا في أثناء حصار ليننچراد في الحرب العالمية الثانية، تسعمئة يوم، من سپتمبر ١٩٤١ حتى فبراير ١٩٤٤.

وانتصب أمامنا، في صدر الساحة الرحبة على بُعد كيلومتر من مدخلها، تمثال چرانيتي داكن، هائل، لامرأة نصف، ملتفحة، وقد فتحت ذراعيها لوعة – تمثال آلام الوطن.

وسرنا بين القبور النضرة: أُصص كبيرة زُرعت فيها الرياحين، كل قبر يحتضن أُلوف الضحايا، شهرًا شهرًا وسنة سنة. والموسيقى المهيبة تملأ الفراغ في الجو وفي القلوب.

ومن جوف النغم الحزين العميق كان ينطلق أُلوف الناس يؤمّون هذا المكان في تُؤدَة، رجال ونساء وأطفال، صبايا

وعجائز، جنود وأطفال، ينثرون على هذه الباقة من القبور باقة من الزهور، ويقفون أمام هذا الأصيص ويسقونه دمعة.

وانتبهنا إلى امرأة عجوز تمسك بيد طفلة. وكانت الطفلة تندفع أمامها وتجرّ جَدَّتها المتثاقلة. وكانت الطفلة تحمل باقة من الزنابق الحمراء. وكانت الطفلة تقف أمام مجموعة قبور فتلقي عليها زنبقة، ثم تجر جدّتها نحو مجموعة ثانية فتلقي عليها زنبقة. وكانت الجدّة تخفّ متثاقلة وراءها. وكانت الجدّة تمسح بيدها المغلقة دمعة عن هذه العين ودمعة عن هذه العين، لعلّ زنبقة حمراء من هذه الزنابق أن تعلق بعروة ما بقي من السترة التي أسْجَت فيها زوجها قبل عشرين عامًا وخمسة أعوام، فيشرق مبتسمًا لها، فتشرَق بالدموع.

ووضعنا على عيوننا نظّارات الشمس السوداء مخافة أن يلحظ الليننچراديون أننا تعدّينا على ما ليس لنا فيه قسط.

وكانت السجائر مشتعلة في أيدينا، فأطفأناها في أيدينا، وألقينا ببقاياها في جيوبنا. فما أرذل احتراق الجيوب حين تحترق القلوب.

ولمّا اقتربنا من تمثال آلام الوطن، ترجَموا لنا أبياتًا من الشعر المنقوش على قاعدة التمثال:

« هنا ترقد أُلوف مؤلّفة..

« من الرجال والنساء والجنود والأطفال..

« يخلّدهم الچرانيت . .

« ولكننا نريدكم أن تعلموا . .

« أننا لن ننسى أي واحد منهم . .

« وإلى الأبد . . . »

الچرانيت ميّت، لا حياة فيه. وكذلك ميّت هذا الوصف، لا حياة فيه. لا أدري إذا كان من الممكن التقاط صورة فوتوچرافيّة للبرق. وحتى لو كان ذلك ممكنًا فلن تسجّل وميضه. ألم تلاحظ، حين يومض البرق أمام عينيك، أنك تنتبه إلى ما يريك مما حجب الظلام عنك أكثر من انتباهك إلى رؤية البرق نفسه؟

ولكننا رأينا صورة فوتوچرافيّة للبرق.

ففي جانب من ساحة المدافن الرحبة، على الطرف الأيمن من مدخلها، قام بناء متواضع جمعت فيه بعض آثار الضحايا التي تدلّ عليهم وعلى ما قاسوه.

وحين دخلنا هذا البناء المتواضع بحلَقت في عيوننا عينا طفل ممزّق الثياب، ضامر العود، مثل شجرة تين منسيّة في حقل منهوب من حقول بلادنا، في الخامسة أو في السادسة من عمره، في شارع عام، بين أطلال وخرائب، ودخان، وموت، في صورة فوتوچرافيّة كبيرة. كانت عيناه ذابلتين في ذهول. ما هذا؟ لماذا؟ أين أذهب؟ . .

عيناه فقط مفتوحتان. وأما كل شيء آخر فيه فمُقفل، من فمه حتى قبضتيه النحيلتين.

ما كاد هذا الصندوق ينفتح على رعاية أُمه، ويعرف أنه إذا ناداها مسحت بحنان كفّها أوجاعه، حتى جاء هذا الشيء، الذي لا يعرف أن اسمه الحرب، فأقفل فمه عن مناداة أُمه، الظالمة، التي تأبى أن تسمع، والتي تأبى أن تجيب. وفي صدره سؤال أقفل فمه عليه: لماذا لا تردّين يا أُمّاه؟

واندفعت زوجتي خارج البناء المتواضع وهي تنشج. فلحقت بها: ما هذا؟ فقالت: ألا يشبه ولدنا؟

لا، لا، هؤلاء لا يشبهون أحداً. فما من أحد تحمّل ما تحمّلوه. ولا يزالون يتحمّلون. ولا نزال نطلب منهم أن يتحمّلوا.

ولكن مرافقينا الليننچراديين نادوا علينا أن نعود. وقالوا إنه لا يمكن أن نذهب دون أن نرى المفكّرة.

أية مفكّرة؟

ودخلنا البناء المتواضع ورأينا المفكّرة مصونة تحت غطاء من الزجاج، حتى تبقى المفكّرة.

هذه مفكّرة طفلة لينچراديّة كانت في السابعة من عمرها حين كتبت هذه المفكّرة الأُولى على حصار لينچراد، واسم هذه الطفلة هو تانيا ساڤتشيڤا.

على دفتر مدرسيّ بالٍ كتبت يومياتها.

كتبت؟..

تستطيعون أن تتخيّلوا ما تستطيع طفلة في السابعة من عمرها أن تخطّ بقلمها.

على صفحة الدفتر الواحدة ثلاث كلمات أو أربع كلمات، مائلة إلى أسفل، غير مستقيمة الأحرف. وبذلك تمتلئ الصفحة.

وترجَموا لنا ما جاء في هذه الصفحات. ولم أجسر على تدوين ما ترجموا. إن للمكان رهبة، وإن في اليد رجفة. ولكن هذه اليوميات جرت، صفحة صفحة، على ما يشبه المنوال التالي:

«اليوم ماتت جدتي»..

«في الصباح لم يستيقظ أخي الصغير»..

«اليوم حملوا صديقتي الصغيرة على زحافة»..

«علمت اليوم أن جارتنا ماتت»..

«اليوم ذهبوا بأُمي النائمة ولم تعد»..

وكان آخر سطر في آخر صفحة، في المفكّرة:

«اليوم بقيت وحدي»..

لقد وجدوا هذه المفكّرة بين الخرائب. وقالوا إنهم وجدوا صاحبتها، الطفلة تانيا. وحاولوا إنقاذها من الجوع. ولكنها

لم تعش بعد ذلك طويلاً.

ولم أنتبه إلى نفسي إلاّ بعد أن قلت لهم: سأكتب عمّا شاهدت.

ولكنني في تلك الليلة لم أنَم من غصّات الندم. سأكتب؟ ما شاء اللّه! وهل أُحمّلهم جميلة؟ وهل يقوى هذا القلم الذي براه صُوَّان الجرائد، وضيّقت أُفقه سجون الهموم اليومية، على ترجمة ما انطفأ في العينين المشدوهتين، وما وَمض في الأسطر العاتبة؟

حتى وقعت في يدي رسائل فتاة مقدسيّة، صبية في الثامنة عشرة من سنيها، رهينة في سجن الرملة، شبه يوميّات، أو مفكّرة، بعثت بها إلى والدتها، في غفلة عين.

وكانت، في غفلة عين، كتبتها على ورق سجائر «ديچل»، التي يسمح بإرسالها إلى السجناء، وتوزّع عليهم أربع سجائر في اليوم الواحد. ولا تنتظروا منّي تفاصيل أُخرى.

إن الخيال، هنا، يمتزج بالواقع حتى لا تستطيع أن تفرّق الحقيقة عن الخيال. مثلما أمسينا، بعد أن أوغلنا في العمر، لا نميّز بين ما وقع لنا في شبابنا وما كنّا نحلم، آنذاك، بأن يقع لنا.

وعليك أن تفترض أن حادث الفتيات المقدسيّات الثلاث، اللواتي اعتقلنَ بتهمة تهريب السلاح أو التستُّر على تهريبه،

وما ثار حول اعتقالهن وتعذيبهن من ضجة في الصحف وفي الرأي العام، وما نُشر عن حشرهن مع نسوة ساقطات، وعن إطفاء السجائر المشتعلة في أجسامهن البضّة، وغير ذلك من الإهانات ومحاولات الحطّ من الكرامة، وما أستطيع أن أتصوّره، وما أعرفه، عن أوضاع السجون، وجوع السجين في السجون إلى الحرية وإلى الكرامة الإنسانية وإلى الطمأنينة وإلى الأصدقاء وإلى الطعام وإلى الشمس وإلى العطف، وقلق السجين في السجون على قلق الأهل عليه، وخوفه عليهم من أن يقلقوا – ذلك ما أوحى إليّ بفكرة هذه الرسائل، اليوميّات، المفكّرة.

ولنعطِ الفتاة، صاحبة الرسائل اسم فيروز، ولنبدّل في أسماء أحبائها الذين تذكرهم في رسائلها تبديلاً.

لماذا اخترنا لها هذا الاسم ولم نختر لها اسم «تانيا»، مثلاً؟ لأن تانيا أصغر منها سنًّا. ولأننا نعتقد أنها ستعيش بعد ذلك طويلاً. ولأن تانيا، بالذي مَرَّ عليها، أكبر منها.

واخترنا لها اسم فيروز لأن هذا الاسم يؤثّر فينا، بهدأة صوته وبهدهدة ما احتواه هذا الصوت، مثل تأثير والدة على ولدها، وقد احتضنت رأسه المصدوع، وأخذت تمسح على جبينه رتيبًا رتيبًا، خفيفًا خفيفًا، حتى يذهب صداعه.

ولن أُطلعكم على هذه الرسائل كاملة بل سأختار ما يحلو

لي ممّا احتوته، وما يحزّ في نفسي، وما يحزّ في نفوسكم، حتى يقضي اللّه أمرًا كان مفعولاً.

الرسالة الأُولى

ماما الحبيبة:

لك ولكل الأهل أجمل الأماني وأطيب الدعوات.

سنلتقي مرة أُخرى بخير وبسرور وبانشراح وبإشراق جديد.

أرجو أيتها الحبيبة أن تحافظي على صحتك وأن تهدّئي من أعصابك، فقد كبرنا وصار علينا أن نتحمّل مشاكلنا بأنفسنا.

ربنا يعوّض تعبك علينا خيرًا وسعادة، فقد حملت عنّا الكثير الكثير. واليوم آن الأوان أن نتحمّل أفراحنا وأتراحنا.

أستحلفك باللّه العزيز أن تهدّئي نفسك وأعصابك، وأن تصلّي لنا دونما قلق.

لا تقلقي عليّ ولا على وظيفتي. فهي مضمونة.

أُكتبوا لحسن دومًا (هذا خطيبها وهو معتقل أيضًا - إ.ح.).

وأنت يا أُختي الحبيبة أُكتبي لحسن ولزوجك

أيضًا (وزوج أُختها معتقل أيضًا – إ. ح.) .
أنا الآن أعيش في غرفة جيّدة مع بقية الفتيات العربيات ونتسلّى مع بعض. أنتم طبعًا لا تعرفون أي شيء. ولكن لا تقلقوا. أرجو إرسال الأغراض التالية مع أي شخص أو مع المحامي.

١ – مجلات عربية وإنجليزية موجودة تحت الطاولة بجانب سريري.

٢ – فرشاة الشعر وشِبشِب بلاستيك وصابون نابلسي ومعجون أسنان.

٣ – الشلحات والبلوزات وكَم تنّورة مرتبة فيجب أن نكون في منظر جيّد أمام اليهود.

٤ – زيت زيتون في علبة صغيرة حديد، لأن الزجاج ممنوع. كل المسؤولين عنّا أخلاقهم جيّدة، فلا تخافي.

٥ – بطيخة صغيرة + ٢ كيلو ليمون حامض + تفّاح من الجيّد + موز وخوخ + عنب أسود وأبيض + بندورة وخيار + مخلّل خيار من مطعم نظيف + زيتون في كيس.

٦ – دجاجة أو اثنتين مع بصل + كباب مثل الذي أحضرته الأُخت وقد اشتقت إليه كثيرًا. فتاة معي

تريد ديكًا. ها. ها. ها. أرجو يا أُخت أُمَّ الوليد عدم نسيان أي شيء. كل الأغراض تدخل. ولا تفهموا من هذا أننا جياع. لا تقلقوا. فنحن نقضي الوقت في الغناء وفي سرد النكت والأحاديث الحلوة.

وكثيرًا ما أنظم الشعر.

وصديقة أُخرى تقول ما أحلى هواء السجن. سجن الرملة، ليس مثله هواء نتانيا. فلا تقلقوا. على فكرة كل الفتيات العربيات اللواتي معي علمتهن الصلاة وكثيرًا ما نصلّي للمحامي فهو يبذل مجهودًا كبيرًا.

أرسلوا لي رسائل حسن حتى أقرأها. نحن نصلّي ونقرأ القرآن، وكثيرًا ما أُصلّي من أجل روح والدي. كذلك أدعو لكم جميعًا.

أُهديكم أُغنية: «طول ما أملي معايا والحب في قلبي».

وإلى اللقاء قريبًا.

ابنتكم

الرسالة الثانية

ماما الحبيبة:

الحمد للّه أنكم في صحة جيّدة. وفرحت كثيراً حين أخبرني المحامي أنكم ستزورونني في الأُسبوع القادم وتحملون إلينا المآكل الفاخرة التي طلبتها. معناه أن رسالتي وصلت، ومعناه أن هذه الرسالة ستصل أيضًا. اللّه يكثّر من الناس الطيّبين. صديقتي تقول لي إنه يوجد ملائكة حتى في جهنّم. وهي صديقة جديدة أُحبّ أن أُحدثك يا ماما عنها. فهي ليست من عندنا بل من حيفا. يعني عربيّة من إسرائيل. وهي معتقلة منذ حرب حزيران بدون محاكمة أيضًا وبتهمة الاتّصال بالعدوّ. وفي هذا الأُسبوع نقلوها إلى غرفتنا التي تسمّى قاووشًا. فرحّبنا بها وأصبحت واحدة منّا كأنما نعرف بعضنا منذ الصغر.

وهي من عائلة الساري من حيفا، وكانوا يسكنون في وادي الصليب، أي حيث كانت عائلتك تسكن يا ماما. وتقول إن مامتها ولا شك تذكركم.

وهذه الصديقة الحيفاوية هي شاعرة مثلي – إحم،

إحم، – وصاحبة نكتة برضُه، وتشاركنا في الغناء. ولكن بينما أنا أُحب عبد الوهاب، هي لا تفضّل على فيروز أحدًا. وخصوصًا «راجعون، راجعون».

ونجلس حولها ونتعجّب من أفكارها. فلمّا سألتها: ماذا يحرّكك في أُغنية «راجعون، راجعون» وأنتِ لم تنزحي ولم ترجعي بل بقيت في وطنك؟ أجابتنا: وطني؟ إنني أشعر أنني لاجئة في بلاد غريبة. أنتم تحلمون بالعودة وتعيشون على هذا الحلم. أما أنا فإلى أين أعود؟ ويا حبيبتي أُم الوليد هذه الصديقة الحيفاويّة تعشق، مثلك، المتنبّي وشعره. وحين تتحدّث عن فردوسها المفقود، وعن وطنها الذي تعيش فيه ولا تشعر بوجوده، تردّد أبيات المتنبّي التي تعلمناها منها، وصِرنا نغنّيها على أنغام حوليّات أُم كُلثوم:

مغاني الشعب طيبًا في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمانِ
ملاعب جنة لو سار فيها
سليمان لسار بترجمانِ

هل تعرفينها يا أُم الوليد؟
وتقول هذه الصديقة الحيفاويّة إنها لا تشعر بالوطن إلاّ حين تجلس في الليل قبل النوم إلى جانب والدتها على الفراش، وتحدّثها والدتها عمّا مضى من أيام حين كان إخوتها الستة في البيت. وينامون على الأرض. ويتضاحكون ويتشاجرون. وفي الصباح تَصُرّ الأُم لهم الزواويد. هذا يذهب إلى عمله وهذا يذهب إلى مدرسته. وإخوتها الستة تفرّقوا الآن في أنحاء الدنيا، في الكويت وفي السعودية، وفي أبو ظبي، وفي بيروت، وواحد في القبر.
ولديها أيضًا عن فراق إخوتها بيتا شعر، لشاعر قديم. وها هي تكتبهما الآن في هذه الرسالة بخط يدها:

قد كنت سابع سبعة لي أُخوة
لو أن شيئًا يا دريم يدوم
ذهبوا بنفسي أنفسًا إذ ودّعوا
فالعيش بعد مقتم مذموم

أليست أفصح منك يا أُم الوليد؟
وهي تنتصر علينا جميعًا حين نتبارى بالشعر مع

أنني في بعض المرّات، حين أعجز، أنظم البيت المناسب. فتقول لي: مكسور، ولكن لا بأس، من أجل خاطر والدتك الحيفاويّة!

وسألناها: بما أنك تعيشين في هذه البلاد، وتعرفين أكثر ممّا نعرف، كيف ترين المستقبل؟

فأجابتنا بلوعَة: ما إن أُفكّر في المستقبل حتى يتراءَى لي الماضي. ماذا أقول لكُنّ؟ إن المستقبل الذي أحلم فيه هو الماضي. وهل هذا ممكن؟

الآن فهمت يا ماما لماذا ترفضين أن تزوري حيفا.

ماما الحنونة: ألَم تخافي من أن تشعري بما تشعر به هذه الفتاة الحيفاويّة؟

ما كنّا نعرف مشاعر إخواننا الذين بقوا.. ولا مأساتهم.. فهل هي أكبر من مأساتنا؟

على فكرة. إذا وصلت هذه الرسالة إليكم قبل أن تأتوا لزيارتنا، فأرجو أن تطبخوا الدجاج مسخّنًا وليس محمّرًا بطلب خاص من شاعرتنا الحيفاويّة التي تقول إنها معنا، حتى في هذا القاووش، تشعر الآن أنها في وطنها.

ولا تنسي يا ماما الشوكولاطة والبسكوت المحشوّ العربي وملبّسًا من صناعة نابلس في كيس نايلون

من الجنس الجيّد.
وأرجو إرسال كعك بسمسم حوالي ست، وضعيها في كيس نايلون، حتى لا تجفّ.
انتبهوا كي تكون الفواكه صلبة حتى تدوم طويلاً، خاصة البندورة، ولأن الأكل كثيراً ما يكون جافًّا. ولكن لا تقلقوا.
أُطلبوا من لميا أن تصنع لي حِلبة، وقُبلاتي وقُبلات الصديقة الحيفاويّة لها.
أرجو إرسال فلافل من عند عبده بعشرة قروش + مخلّل + فلفل. أرسلوا بزراً وقضامة، يعني مخلوطة من الحمص أُوقيتين. وبرمة بفستق حلبي كيلو ضروري جداً. فنحن نفتقد الطعام والحلويات كثيراً. ولكن لا تحزنوا.
إيّاك يا أُم الوليد أن تنسي شيئًا فالنقود مع أُمّي. خذي منها واشتري لي. أوصي عمّتي وعمّي بشأن زيارة حسن.
سلامي لكل السُمر. سلامي لنونَة الحلوة الصغيرة. وإلى حماتي وحماي الأعزاء.
هل أهديتكم في الرسالة السابقة أُغنية؟ لا بأس من أن أُهديكم إياها حتى ولو كان الإهداء

للمرة الثانية.
أُهديكم أُغنية: «طول ما أملي معايا والحب في قلبي».
هذا ما أُحاول أن أزرعه في قلب صاحبتي الحيفاويّة.
وإلى اللقاء قريبًا.

ابنتكم

الرسالة الثالثة:

ماما الحبيبة:

.....

.....

(ولكنكم قرأتم هذه الرسالة، كما قرأتها، في الصحف. لقد نشروها أثناء محاكمة الشرطيّة اليهوديّة التي طردوها من وظيفتها وحكموا عليها بسنة حسن سلوك، حين وجدوا أنها هي التي تهرّب رسائل فيروز إلى والدتها. إن الملائكة موجودون، حتى في جهنم!
غير أني متأكد أنّ ما نشروه مليء بالتشويهات.

إن كل ما ورد في الصحف، على أنه من هذه الرسالة، حول «الاتّفاق مع الفتاة الحيفاويّة على تنظيم خلية سريّة داخل إسرائيل» هو محض تشويه لصداقة بريئة بين فتاتين من شعب واحد، اجتمعتا، بعد فراق طويل، تحت سقف واحد، سقف القاووش).

.. وقصص أُخرى

بوّابة مندلبَاوم

– «بل قُل يا سيّدي، إنها تنوي الخروج من هنا».. صاح الشرطي الإسرائيلي الواقف، مكتوف اليدين، على بوابة مندلباوم، عندما أخبرته بأننا أتينا مع الوالدة التي «تنوي الدخول إلى هناك بعد أن أُذن لها بذلك»، وأشرت إلى الجهة الأردنية من البوابة.

كنّا في آخر الشتاء والشمس تطلّ على الربيع.. وحيث أبقى الحطام ترابًا تغطّى التراب بالخضرة، وعلى اليمين حطام وعلى اليسار حطام. وأطفال استرسلت شعورهم على سوالفهم(*) كانوا يمرحون بين الحطام وبين الخضرة، يثيرون الدهشة في نفس الأطفال الذين جاؤوا معنا يودّعون جدتهم: «صبيان وذوو ضفائر؟ كيف يكون هذا»؟. وفي الوسط ساحة رحبة من الأسفلت المعفّر، في قلب الناحية التي عرفناها باسم المصرارة. ولهذه الساحة بابان، باب «هنا» وباب «هناك» من الصفيح المحشوّ بالحجارة والمطليّ بالكلس الأبيض. كل باب يتّسع لمرور سيارة «خارجة» أو «داخلة».

وأطلق الشرطي كلمة «الخروج» من بين أسنانه في غنّة أراد بها أن يلقّنني درسًا. فالخروج، ويريد أن يقول: من الجنّة، هو الأمر الجلل، لا الدخول «إلى هناك»! وعسكري الجمارك لم يشأ أن تفوتنا العبرة. فقال لنا ونحن نتبادل قُبلات الوداع مع الوالدة: «من يخرج من هنا لا يعد أبدًا»!

وأحسب أن مثل هذه الأفكار كان يلاحق الوالدة في أيامها الأخيرة بيننا، فحين اجتمع الأهل والأصحاب في بيتها عشيّة السفر إلى القدس، قالت: «لقد عشت حتى رأيت المعزّين بي بأُم عينيّ». وفي الصباح عندما نزلنا منحدر الزقاق إلى السيارة، التفتت وراءها ولوّحت بيدها لأشجار الزيتون ولشجرة المشمش الجافّة ولعتبة الدار، وتساءلت: «عشرين سنة عشت هنا، فكم من مرّة طلعت هذا الزقاق ونزلته»؟!

ولمّا مرّت بنا السيارة على المقابر، في ضاحية المدينة، هتفت تنادي الموتى من أقربائها ومن أقرانها وتودّع قبورهم: «كيف لم يكن من حظّي أن أُدفن هنا؟ ومن سيضع الزهور على قبر ابنة ابني؟». عندما «حجّت» إلى القدس في سنة ١٩٤٠، قال لها عرّاف إنها ستموت في المدينة المقدّسة، فهل ستتحقق نبوءَته في آخر الأمر؟

لقد بلغت الخامسة والسبعين من عمرها ولمّا تجرب ذلك الشعور الذي يقبض على حبّة الكبد فيفتتها. ذلك الشعور الذي يخلّف فراغًا روحيًا وانقباضًا في الصدر، كتأنيب الضمير، شعور الحنين إلى الوطن. ولو سئلت عن معنى هذه الكلمة، «الوطن»، لاختلط الأمر عليها كما اختلطت أحرف هذه الكلمة عليها حينما التقتها في كتاب الصلاة: أهو البيت، إناء الغسيل وجرن الكبّة الذي ورثته عن أُمّها (لقد

ضحكوا عليها حينما أرادت أن تحمل معها في سفرها إناء الغسيل العتيق هذا، وأما جُرن الكبّة فلم تتجرّأ على التفكير بحمله معها!)، أو هو نداء بائعة اللبن، في الصباح، على لبنها، أو رنين جرس بائع الكاز، أو سعال الزوج المصدور، وليالي زفاف أولادها، الذين خرجوا من هذه العتبة إلى بيت الزوجية واحداً وراء الآخر وتركوها وحدها!

هذه العتبة، عتبة الدار التي تلقي عليها الآن آخر نظرة، لتنطق وتشهد! كم من مرّة وقفت عليها تودّع عرسانها وتغنّي لهم وهي تَشْرَق بدموعها «جبتك من الهيش جلبوط ما عليك الريش. وعلّمتك الزقزقة والطير والتعشيش. ومن بعد ما كبرت وصار عجناحك ريش. طرت وراح تعبي عليك بخشيش».

ولو قيل لها إن هذا كله هو «الوطن» لما زيدت فهمًا. ولكنها الآن، وهي تشرف على «الأرض الحرام»، وتنتظر الإشارة لها بالتقدّم خطوة إلى أمام، تلتفت إلى ابنتها وتقول: «نفسي في جلسة أُخرى على هذه العتبة»!

وأخوها الكهل، الذي جاء من القرية ليودّعها، كان يهزّ رأسه باستمرار وعلى وجهه الألم والتعجّب. هذا «الشيء» الغامض، الذي تنتحب أُخته لأنها تخلفه وراءها ولا تستطيع أن تحمله معها. هو عزيز عليه وحبيب.

وقال له جارنا:

– «ولكنك في نهاية الأمر ستوقّع لهم على ورقة البيع، فالقانون معهم». والتفت الشيخ القروي نحوي وقال:

– «إسمع يا خالي كنّا مرة نحرس المقثاة أنا وأبي وأخي الأصغر. وإذا برفّ من الحجل يهبط في الحقل. فاستعجل أخي يحمل بندقيّة الصيد كأنه الرجل، فغشي أبي من الضحك. هل تذكر كيف كان يضحك جدّك، يا خالي؟ يا ولد صيد الحجل للرجال! ولكن صغيرنا كان عنيداً. فعاد إلينا بعد ساعة وفي يده، يا للعجب، طير من الحجل لا يزال على قيد الحياة. فذُهلنا. وأما العفريت الصغير فكان يرقص وهو يتباهى بصيده. وصاح أبي: ولكننا لم نسمع صوت الطلقة! فأجاب الصيّاد الصغير: لقد سحرت البندقية بابا.. وحلّفني بجدودي وبجدود جدودي ألا أُفشي السرّ أمام والدنا، حتى أخبرني أنه رأى هذا الطير المسكين بين فكّي قط كبير، فظلّ يركض وراء القط من عُلّيقة إلى عُلّيقة وبين أعواد الذُّرة حتى خلّصه منه.. هيه، يا خالي، هل ينتظرون منّي أن أُوقّع على قسيمة بيع هذه الذكريات؟!.. ما أقصر باع قوانينهم!

*

إني أنصحك ألا تأتي بوابة مندلباوم وفي صحبتك أطفال، لا لأن البيوت المتهدّمة والمقفرة هنا تستدرجهم للبحث في

داخلها عن «المصباح المسحور» وعن «مغارة علاء الدين». ولا لأن الشعور المسترسلة على السوالف تضع في أفواههم أسئلة استفزازيّة قد توقعك في ورطة. بل لأن الشارع الذي يفضي إلى بوابة مندلباوم لا يخلو، ولا للحظة واحدة، من السيارات التي تقطعه، بسرعة أُوروبيّة، إما قادمة «من هناك» وإمّا خارجة «من هنا»، وهي سيارات أمريكيّة أنيقة، وراكبوها من الناس الأنيقين، ذوي الياقات المنشّاة، أو القمصان الملوّنة، أو البزّات العسكرية التي خيطت لتصطبغ بقطرات الويسكي لا بقطرات الدم.

هذه هي سيارات «رجال الهدنة» و«لجان المراقبة» و«هيئة الأُمم» وسفراء الدول الغربيّة وقناصلها وحريمهم وطبّاخي حريمهم، و«باراتهم» وحسانهم، وحسان حسانهم، تقف برهة على «بابنا» ليتبادل سائقها التحيّة مع «شرطيّنا» – من باب الذوق والتمدّن – ثم تقطع «الأرض الحرام»، حتى تقف برهة على «بابهم» ليتبادل سائقها التحيّة مع «شرطيّهم» – ومن باب الذوق والتمدّن وتبادل علب السجائر والنكات وغيرها، تقوم هنا منافسة إسرائيلية أردنية – والعكس صحيح أيضًا..

وهؤلاء لا يسري عليهم قانون الموت: من خَرج منها لا يعود إليها. ولا قانون الجنّة: من دخَلها لا يخرج منها. فحضرة

المراقب يستطيع أن يتناول الطعام ظُهراً في فندق فيلادلفيا ومساءً في فندق عدن(**)، والابتسامة المهذّبة لا تفارقه في الغدو وفي الرواح!

ولما أخذت أُختي تتوسّل إلى الجندي الواقف على «بابنا» أن يأذن لها بتشييع والدتها حتى الباب الأردني، قال لها الجندي: «ممنوع، يا سيّدتي».

– «ولكنني أرى هؤلاء الأجانب يدخلون ويخرجون كما لو كانوا في بيتهم وأعزّ»!

– «كل من عليها يا سيدتي يستطيع الدخول والخروج عبر هذين البابين، إلاّ أهل البلاد يا سيدتي المحترمة»..

.. وقال الشرطي: «أرجوكم أن تبتعدوا عن الطريق، هذا طريق عام شديد الازدحام». وقطع كلامه ليتبادل مع راكبي سيارة قادمة (هل هي «خارجة» أم «داخلة») حديثًا ضحكوا له وضحك لهم. وأما نحن فلم نفهم النكتة..

وقال عسكري الجمارك: «لكل شيء نهاية حتى لساعة الوداع».

وخرجت من «بابنا» نحو «بابهم» امرأة عجوز تدبّ على عصاها، وأخذت تقطع «الأرض الحرام»، وهي تلتفت وراءها بين اللحظة والأُخرى، وتلوح بيدها وتسير إلى أمام. لماذا الآن، والآن بالضبط، تتذكّر ابنها الذي مات قبل ثلاثين عامًا، حين

سقط بين يديها من فوق «المَتحتة»؟ ولماذا تشعر الآن، والآن بالضبط، بتأنيب الضمير؟!

وبرز من بين الحطام، من الناحية المقابلة، عسكري فارع الطول على رأسه كوفيّة وعقال، استقبل المرأة، العجوز، «الداخلة». ووقف يتحدّث معها، وكانا ينظران إلى ناحيتنا.

وكنّا هنا، مع أطفالنا، نلوح بأيدينا. وقد وقف أمامنا جندي فارع الطول حاسر الرأس، وهو يتحدث معنا. وكنا ننظر إلى ناحيتهم. وكان يقول لنا إنه من المستحيل التقدّم خطوة أُخرى إلى أمام.

ولماذا قال لنا: «كأنما هي قد قطعت الآن وادي الموت الذي لا رجعة منه. هذا هو واقع الحرب والحدود وبوابة مندلباوم. أرجوكم، أفسحوا مكانًا لمرور سيارة الأُمم المتحدة»!

وفجأة انفلت من بيننا جسم صغير ينبض بالحياة، ككرة قذفتها قدم لاعب ماهر صوب هدف الفريق الآخر، وراح هذا الشيء الصغير يركض إلى أمام، مخترقًا ساحة «الأراضي الحرام». ورأينا، والدهشة تعقد ألسنتنا، طفلتي الصغيرة تركض نحو جدتها وهي تنادي: «تيتا، تيتا». ها هي تخترق «الأرض الحرام»، ها هي تصل إلى جدتها، وتأخذها بين أحضانها!

ومن بعيد رأينا صاحب الكوفيّة والعقال يخفض رأسه نحو

الأرض. وأنا نظري حادّ، فرأيته يفحص الأرض بقدمه. والجندي الحاسر الرأس، الذي كان معنا، ها هو أيضًا يخفض رأسه نحو الأرض وها هو يفحص الأرض! وأما الشرطي الذي كان واقفًا، مكتوف اليدين على باب مكتبه، فقد دخل إلى مكتبه. وأما عسكري الجمارك فقد كان مشغولاً بتفتيش جيوبه عن شيء يظهر أنه افتقده فجأة.

أي أمر عجب حدث الآن؟ طفلة تقطع «وادي الموت الذي لا رجعة منه» وترجع منه وقد نقضت «واقع الحرب والحدود وبوابة مندلباوم»!

فهي طفلة جاهلة لا تدرك الفرق بين العسكري الذي يلبس الكوفية والعقال والعسكري الحاسر الرأس. يا لها من طفلة ساذجة، رأت أنها لم تنتقل عبر البحور إلى بلاد أُخرى، فتوهّمت أنها لا تزال في بلادها. فلماذا لا تسرح ولا تمرح في بلادها؟ ورأت أنه على جانب يقف والدها وعلى الجانب الآخر تقف جدتها، فلماذا لا تسرح ولا تمرح بينهما كما كانت تفعل كل يوم؟ خصوصًا وأنها ترى سيارات تروح وتجيء على «الأرض الحرام»، تمامًا كما تفعل السيارات على الشارع قرب بيتها. هنا يتكلّمون العبرية وهناك يتكلّمون العربية. وهي أيضًا تتكلّم اللغتين: مع نينا ومع سوسو!

ويظهر أن عسكري الجمارك يئس من التفتيش عن «الشيء

المفقود» (لكل شيء نهاية حتى للورطة..). فقد توقّف عن هذه العملية المضنية فجأة كما ابتدأها. ثم تنحنح. ثم قال للجندي كأنما يبادله العزاء: «طفلة جاهلة»..

– «أرجوكم، أيها السادة، أن تبتعدوا عن الطريق لئلا يسقط طفل من أطفالكم بين عجلات السيارات التي تمرّ من هنا بسرعة، كما ترون».

*

أفهمت لماذا نصحتك ألاّ تأتي بوابة مندلباوم وفي صحبتك أطفال؟ إن منطقهم بسيط غير مركّب. ما أسلمه!

(آذار ١٩٥٤)

(*) الإشارة إلى أطفال الطائفة اليهودية المتديِّنة التي تسكن في الحي القريب من بوابة مندلباوم في القدس.

(**) فندق «فيلادلفيا» في عمان، وفندق «عدن» في القدس الإسرائيلية.

النوريَّة

قصة – أُنشودة في ثلاثة مقاطع

(١)

بكاء العروس

– كيف بكاؤك يا أبتِ؟

– من سنان القلم يا بنيّة. أطراف أقلامي مآقيّ.

– ولكن ما تكتب يسلّي همومنا!

– وذلك هو البكاء.

إنّ أهوَن المصائب ما يصيب غيرك.

ومشاركته بالبكاء تفريج عن كربك من قبل أن تكون تعزية له.

– كل البكاء؟

– إلاّ بكاء العروس وهي تلتفت إلى وراء.

مثل ماء النار:

يحرق قلب أُمها

ويمضّ عروسها

ويحنق أُمه

ويلوي، تأفّفًا ودهشة، شفاه بنات الحي.

– فكيف بكاؤك الآن؟

– بكاء العروس.

(٢)

زنوبا

لو كان وحده الذي رآها، في ذلك الصباح النيسانيّ المشرق، لضمّ أضلعه على هذه الرؤيا الجديدة معتقداً أنها مشهد آخر من أحلام يقظته. ففي الأشهر الأخيرة تداخلت أحلام يقظته في حوادث واقعه، حتى أصبحت جزءاً من هذا الواقع، لا يفرّق الواحد منها عن الآخر.

فما أقسى هزل الشيخوخة: رفعت يدها المعروقة عن سواد مفرقه، ولكنها دهمته بأطياف الصبيان. مثل ذلك المُقعد الذي وصل إلى المئة يلهث من الإعياء فما وجدت الشيخوخة ميدانًا لمداعبتها غير فمه المفتوح.. فأنبتت له أسنان حليب!

وهو يذكر، أوّل ما سال عِذارُه، كيف كان يعود من المدرسة إلى بيته في هذا الزقاق، وقد امتلأ رأسه بفتوحات الإسكندر المقدوني. فيُقيم من شارع الوادي(*)، وهو ماشٍ، امبراطوريّة أوسع من امبراطوريّة ذي القرنين. ويقطع مضيق جبل طارق، على رأس أساطيل العرب، مستعيداً الأندلس. وذات يوم، وهو يمرّ من أمام البقّال، كان يفتح مع نابليون بونَپارت أُوروپا كلها. وعلى ما ظهر فيما بعد، فقد كان يقفز، بالفعل، مُغيراً

على أعدائه. فقد انتشر في الزقاق خبر عن أن الصبي «غير طبيعي». ولمّا وصل الخبر إلى والده الكهل، ربطه أخوه الكبير بعرق الباب، وانهال أبوه عليه بالحزام حتى أعاده «صبيًّا طبيعيًّا».

ومنذ ذلك الحين انقطعت أطيافه. ومضى شبابه، كومضة الحلم، ينجب البنين والبنات بأطيافهم. ولا يجرُؤ على التفكير في الماضي، حتى لا يعير بالسذاجة طفولة فتحت صدرها لقبض الريح.

وها هو الآن، وقد قعد على عتبة الستين، يراقب سابلة الحياة التي لا تنقطع، في شارع الوادي القديم، مع الحلاّق والفرّان وبائع السمك والبقّال وجامعة بقول البرّ واللبّانة الطيراويّة – ما طلع جديد على هذا المسرح غير بائع البلاستيك وعساكر البلدية – تدهمه أحلام اليقظة من جديد، أشدّ ممّا كانت دهمته في طفولته. حتى اختلط الأمر عليه وضمّها بين أضلعه له، وله وحده. ولم يبقَ له أخ كبير يربطه بعرق البيت. ووالده صارت عظامه مكاحل. لقد صار هو نفسه والدًا!

ولو جئت الحقيقة، لوجدت الفرق عظيمًا بين أحلام الأمس وأحلام اليوم، مع أنه كان يحب أن يوهم نفسه بأن الحياة تحيط نفسها بهالة واحدة من الأحلام في عَدْوها وفي رواحها. فأحلام الطفولة كانت اعتناقًا للحياة، كما يعتنق مارد جبلاً

ليحمله وليتبختر به أمام عروسه المشدوهة وخلق الله أجمعين. وأما أحلام الشيخوخة فأنين مكبوت تحت جبل طود من هذه «اللّو» التي لَوَت نياط قلبه. كل طيف منها يبدأ بـ«لو» – صخرة تتدحرج من أعلى الجبل، حتى تجرف معها كل سياج أحاط به حياته الرتيبة: «لو فعلت غير ما فعلت، لحدث غير ما حدث. فلماذا لم أختر ذاك الطريق؟».

منذ وقت طويل آمنَ ببُطلان الحكمة المستكينة: «ليس بالإمكان أبدع ممّا كان». ولكنه الآن يرى إلى أن هذا الإيمان لا يصلح للمستقبل وحده. إنما يصلح للماضي أيضًا. فقد كان من الممكن أن يكون ما كان أيضًا أبدع ممّا كان. وكم ليلة من ليالي طفولته قضى فيها ساعات وهو يلطم الوسادة بقبضتيه غضبًا، على أنه لم يجرؤ في يومه على أن يرد لطمات غريم له لطمة بلطمة. فإن هذه «اللّو» قديمة، إذن، في حياته – لو أنك جئت الحقيقة.

ولكنه لم يكن وحده الذي رآها في ذلك الصباح النيساني المشرق. لقد هبطت على الوادي من باب الطلعة كما يهبط الندى على أغصان تينة عتيقة: زنوبا النوريّة الحسناء، هي هي كما كانت قبل ثلاثين عامًا. ما تغيّر فيها شيء. بلحمها الذي بلا شحم. وبثيابها المزركشة الهلّة. وبدفّها الصغير ذي الصناجات النحاسيّة الكبير مثل القُرطين النحاسيين الكبيرين

في أُذنيها. وبابتسامتها اللعوب. وبعينيها الخضراوين الكحلاوين بدون صناعة، على وجه أسمر على قامة ملفوفة.

– هيه يا زنوبا! اتفقنا على مناداتك بهذا الاسم من قبل ثلاثين عامًا، حين كنت تخطرين في أزقتنا تارة وحدك، وما أبدع هذه التارة، وتارة مع والدك – هل هو والدك يا زنوبا؟ – ولكننا تواضعنا عليه، فصلح لك وصلح لنا. لقد امتزج هذا الاسم بملاعب طفولتنا حتى أصبح جزءًا منها تُذكر فيُذكر، مثل جدار المدرسة الذي كان قلعتنا في حرب الأولاد الآخرين، ومثل المعلم الذي كبسناه يقبّل المديرة، فما عاد وما عادت في الفصل التالي، ومثل نافذة بنت الجارة، اليونانيّة الحلوة، التي كانت تقعد عليها تحمل إبرة في يد وخيطًا في الأُخرى. ولكنها ما كانت تنسج إلا بعينيها أحلام صبوتها. وكان هو يمر تحت النافذة سبع مرات في اليوم على الأقل، ذهابًا وإيابًا. وكان يمدّ عنقه حتى يستطيع أن يرى عينيها – هل تمنحه نظرة واحدة، واحدة فقط يا ربّي! ماذا أصاب هذه النافذة الآن؟ إنه يمرّ أمامها ويتنهّد. ما بقيت جارة ولا بقيت بنتها. والذي أثار دهشته أنه صار يمرّ الآن أمام النافذة فلا يحتاج إلى رفع البصر نحوها، كما كان شأنه في الطفولة، بل صار يخفضه حتى يرى النافذة. فماذا دهاها؟ هل انخفضت النافذة حتى حاذت كتفيه، أم ارتفع الطريق خلال هذه السنين؟ هل

تراكم العمر فوقه، حتى كاد أن يُحاذي النافذة؟ سقى اللّه أيام الطفولة يا زنوبا، حين كان يلبس السروال، رقعة فوق رقعة أرقع من مداس أبي القاسم، حتى تعلن والدته أنه قد ضاق عليه. كل شيء يكبر أو يصغر في أذهاننا إلاّ نحن في أذهاننا. نظلّ كما كنّا يا زنوبا!

هبطت على الوادي من باب الطلعة. زنوبا النوريّة الحسناء. هي هي كما كانت قبل ثلاثين عامًا، ما تغيّر فيها شيء. فخلّفت وراءها على طول الوادي جلبة كما تخلّف زوبعة عابرة تسحب معها، وإليها، كل الآنية المعروضة في سوق الفخّار.

وكانت هند العجوز، جامعة بقول البرّ، أول من رآها. ونادتها: زنوبا! فالتفتت النوريّة الحسناء نحوها ضاحكة بعينيها. فتردد الاسم الحبيب على شفاه جميع الكهول في الوادي، مثل رجع الصدى في مغارة عميقة في بطن جبل. وتحلّقوا حولها: الحلاّق والفرّان وبائع السمك والبقّال وهند، جامعة بقول البرّ، واللبّانة الطيراويّة، والمعلم المتقاعد الذي يرتزق ممّا يعلق بصنارته من سمك في تل السمك، والقاعد على عتبة الستين متفرجًا على سابلة الحياة، وحتى طبيب الوادي، الكنز الباقي، رآها وناداها وانضمّ إلى حلقة المتحلّقين حولها، وبائع البلاستيك وعساكر البلدية وأولاد الحارة وقفوا

ينظرون متعجّبين، لا يستطيعون أن يفهموا من الأمر شيئًا.

*

هند العجوز جامعة بُقول البرّ:

– أنا هند يا زنوبا. هند السمراء أجيرة الفرّان. كنت أجمع حولي من الفتيان، أكثر ممّا كان دفّك يجمع منهم. وأية والدة، في ذلك الزمن يا زنوبا، لم تتساءَل عن سرّ حماس فتاها في حمل عجينها إلى الفرن؟ كنت أنا هو السرّ يا زنوبا. أما بُقولي الآن، فلا تجمع سوى قروش غير مثقوبة. حتى فتحات القروش سدّوها علينا يا زنوبا. فاضربي على دفّك وارقصي يا زنوبا، لعلّ الصِّبية أن يجتمعوا فترتزقي وأرتزق!

– حين يخمر العجين في بيوتكم، ويعود أبو جميلة يرقص في ساحاتكم، أضرب على دفّي يا هند، وأرقص يا يتيمة!

وقهقه شيوخ الوادي حولها ضاحكين. وبائع البلاستيك لم يفهم شيئًا ممّا يدور حوله. ولا عساكر البلدية فهموا شيئًا. وأما الصِّبيَة فاقتربوا يتحسّسون ثيابها المزركشة، لاهين. وأما القاعد على عتبة الستين فاغرورقت عيناه من شدّة الضحك.

*

– أبو جميلة!

– أبو جميلة، ضيّعت حالي، بين الجمال.

– أبو جميلة، دا الحب مالي، ودا حلالي.

– أبو جميلة!

– أبو جميلة، الحال مايل، والعمر زايل.

– أبو جميلة!

*

بائع السمك، الأصلع، الذي يؤكد أن الشباب لا يُقاس بكثافة شعر الرأس، بل برسوخ الشاربين، وأسعار سمكه لا تختلف باختلاف الجودة والجِدّة، بل باختلاف الملاحة لدى الشاريات:

– أنا الولد الجعدة يا زنوبا، حبيب الصبايا، الذي كان يسرق لك أكبر برتقالة من دكان والده مقابل قبلة منك، في عطفة الوادي، وعلقة من والده على باب الدكان. أين الدبّ صاحب نجلا يا زنوبا؟

– حين تصبحون أعقل من الدبّ، يا آكل العلقات على باب الدكان وفي عطفة الوادي، وتحبّون سميّة أيضًا، يعود الدبّ يلعب في ساحاتكم.

وقهقه شيوخ الوادي حولها ضاحكين. وبائع البلاستيك تضايق من انصراف الناس عن بضاعته. وعساكر البلدية تشاوروا فيما بينهم ما إذا كان عليهم أن يطلبوا منها إبراز رخصتها. والصبية تهامسوا بالدبّ وبالخوف منه. وأما القاعد على عتبة الستين، فاغرورقت عيناه من شدّة الضحك.

نجلا وسميّة والدبّ صاحب نجلا

نجلا . .

الصبية المترفة بنت صاحب الفندق. كانت الخادم توصلها إلى المدرسة، وكانت الخادم ترجعها من المدرسة. وكان لها مقعد خاص في غرفة الدراسة، يختلف عن كل مقاعدنا، وكانت كسلى في دروسها، إلاّ أن شعرها الذهبيّ ونفوذ والدها ضمنا لها أعلى العلامات.

سميّة . .

الصبيّة الهزيلة، الحولاء، بنت حفيظة خادم المدرسة. كان اجتهادها في حفظ الفروض مدار نكاتنا.

وكنا نلعب «الغمّيضة». فلا يختبئ الصبيان إلاّ حيث تختبئ نجلا. وما اختبأت سميّة أبدًا إلاّ وحدها. وذات يوم بقينا نلعب «الغمّيضة» حتى غابت الشمس. وكنّا نتدافع على مَخبأ «الدلّوعة»، نجلا. وصرخت سميّة وهي تعول: لماذا لا يختبئ أحد معي. أنا خائفة؟

فهل وجدت سميّة من يختبئ معها فيما بعد، ويؤنس وحشتها، في ديار الغربة يؤنس غربتها؟

الدب صاحب نجلا . .

يوم خرجنا من الصفوف لنتفرّج على النّورية ودبّها – كان ذلك قبل الزلزال الكبير على ما أظن. ومن المؤكد أنه كان قبل «الچراف زبلن». ووالد النوريّة صار يلعّب الدبّ ويوقفه على مؤخّرته. والدبّ يحمل عصا يتوكأ عليها. وكنا نضحك ونتدافع متشجّعين للاقتراب من الدبّ. وكانت نجلا أشجعنا. فشعرها الذهبيّ ونفوذ والدها يحميانها من كل مكروه. وفجأة ألقى الدب عصاه وارتمى على أربعته ولفّ يمينه على ساق نجلا، التي كنّا نختبئ معها في أثناء «الغمّيضة». ورأينا نجلا لأول مرّة تبكي، ورحنا نتصارخ حولها، وظلّ والد النوريّة أكثر من ساعة يجهد ليرفع الدبّ، والدبّ متشبّث بلقطته، حتى فكّه عنها. لقد كانت الساعة في الماضي أقصر بكثير من الساعة اليوم. ومنذ ذلك الحين سمّينا دبّ النوريّة دبّ نجلا. وازدادت قيمة نجلا في عيوننا. صار لها، بعد الشَّعر الخاص والوالد الخاص والمقعد الخاص، دبّ خاص!

فهل وجدت نجلا فيما بعد دبّها الآدمي، الذي يدفئ ساقها، في ديار الغربة يدفئ غربتها؟

*

واهتزّ عليّ البقّال، في ومضة قدريّة استعاد فيها شبابه.

– أُرقصي لأحبّائك مرة واحدة يا زنوبا، مرة أُخرى يا زنوبا،

لوالدك، للدبّ، للسعدان، لطلّ الخريف، لبائع الدندرمة، للَغْط الصبيان، لنا يا زنوبا!

– ما رقصت أبدًا إلاّ لمن لا ينظر إلاّ إلى الأمام، للصبيان الذين ليس لهم إلاّ ما هو أمامهم. وسأرقص للصبيان مرة أُخرى، لأولادكم يا علي ويا جعدي ويا هند، وأنت يا قاعد على عتبة الستين، حين تحكون لأولادكم عنّي فلا أعود غريبة عنهم. حينئذ سأرقص: أيديَ بأيدٍ متشابكة خارج هذا الوادي، في الفضاء الواسع.

وقهقه شيوخ الوادي حولها ضاحكين. وبائع البلاستيك التفتَ نحو عساكر البلدية: متى تبدأون بتأدية واجبكم؟ وعساكر البلدية تساءلوا فيما بينهم: كيف؟ والصِّبْية نظروا في عيون آبائهم متسائلين. وأما القاعد على عتبة الستين فاغرورقت عيناه من شدّة الضحك.

*

– شتّي يا دنيا وزيدي..

– شتّي يا دنيا وزيدي. بيتنا حديدي، عمّي عبد اللّه. كسر الجرّه. قتله سيده. نيّمه برّه. هيه!

– إيما يا كايما، يا كايما!

– بوظة بحليب. اليوم بمصاري وبُكره بلاش!

– هوپ إعجن مثل ستّك العجوز وهي تعجن العجين!

– هوپ، تبختر مثل المعلم وهو يعلّم الأولاد!

– ولدي!! طلعت قنبلة في رأس الشارع.

– ولدك بخير. انقتل ابن مسعود.

– يا ستّي العرجا العرجا، يا مفتاح الطبنجا!

– أوعَ تغيب بعد غياب الشمس، أحسن ما تطلع فيك قنبلة.

– حطّيته ورا الصندوق. أجا خالي سرقه. سرقُه ما سرقُه. لبّسني من حلقُه.

– إضراب!

– حلقُه شقلي بقلي. حلقُه طيّر عقلي. يا بنت الملوكِ، جايين يخطبوكِ. عَ باب المدينة. كعكة ولِاّ تينه. كعك الشام غالي. تسلم ذقن خالي. خالي في البريّة. عم يوكل تمريّة. قلت له طعميني. قال لي توكل ضربة سكّينة. هيه..

– بوليس..

*

ولم يشأ طبيب الوادي، كنزنا الباقي، إلاّ أن يجسّ نبضها. وكان في الواقع يمتحن بقايا النبض في قلبه.

– ما كنت طفلاً في ذلك الوقت يا زنوبا. كنت أعود من الجامعة في الشام. وكنت تأتين إلى غرفتي وتُبَصِّرين لي مستقبلي. إن الطست النحاسيّ جاهز. والغرفة قائمة.

وأستطيع أن أملأه بالماء بيدي. فتعالي بَصِّري لي مستقبلي.

– الذي بقي لك من مستقبل، يا كنز، يستطيع أن يراه أعشى.

اقلب الطّست وانقر عليه.

وقهقه شيوخ الوادي حولها ضاحكين، وكذلك الكنز الباقي. وحتى بائع البلاستيك وعساكر البلدية قهقهوا ضاحكين. والصِّبيَة ضحكوا لضحك الطبيب، فإنهم أحبّوه كما أحبّهم. وأما القاعد على عتبة الستين فاغرورقت عيناه من شدّة الضحك.

*

فمن أيام الدراسة في الجامعة، كان يحبّ النظافة ويحبّ السترة. ولذلك، حين كانت تأتيه النوريّة إلى غرفته، كان ينادي على صاحبة البيت أن تحمل إلى غرفته طستًا مليئًا بالماء. فكان يبدأ بغسل النوريّة. لماذا تريد الماء يا جارنا؟ حتى تُبصِّر لي مستقبلي يا جارتنا. بالماء؟ إنّ فتح البَخت لدى النُّور أشكال وألوان.

والحقيقة أنه ما من أحد أحبّها كما أحبّها صاحبنا هذا. وقد عرفها تمام المعرفة. وهي تحبه أيضًا.

*

لم يشأ القاعد على عتبة الستين أن يحرّك الماضي. فهو

يعرفها أيضًا. وهو يحبها أيضًا. ولكنه صار يعرف نفسه.

ولكنها هي، النوريّة، لم تتركه لشأنه. أشارت عليه وأغرقت في الضحك. ثم أشارت إلى كشك الصودا والجازوزة أمامه وأغرقت في الضحك:

– ماذا أصاب الثالوث العبقري، والغرفة التي وُلدت فيها، والتي ستتحوّل إلى متحف؟

وقهقه شيوخ الوادي حولها ضاحكين. وصاحب كشك الصودا والجازوزة ركض إلى بائع البلاستيك وتهامسا. وراحا إلى عساكر البلدية وتهامسوا. وسال لُعاب الصِّبية على ذكر الجازوزة. وأما القاعد على عتبة الستين فمسح الدموع عن عينيه من شدّة الضحك.

*

كانوا ثلاثة أذكياء في المدرسة، لقّبهم معلمهم بالثالوث العبقري. وأدخل في رؤوسهم أن مستقبلاً ذا شأن ينتظرهم. واحد سمع عنه أنه أُستاذ العربية في جامعة في الخرطوم. والثاني، قيل إنه في مستشفى سِلّ في لبنان. وهو، هنا، قاعد على عتبة الستين يتفرّج على سابلة الحياة التي لا تنقطع.

وكان يسرّ إلى زنوبا بكل أحلامه. وكان يحلم بأن يكون عظيمًا. فتقيم أُمّته له من الغرفة التي وُلد فيها، في هذا الزقاق، متحفًا يجمع فيه تراثه. أما أُمّته فتفتّش عن آثارها. وأما الغرفة

التي وُلد فيها فقد هدموا جدارها وحوّلوها إلى كشك صودا وجازوزة.

*

ماذا دهى الحلاّق، كثير الحكي، حتى أنه لم يدخل في الموضوع حتى الآن؟ لقد خرج من دكّانه مع أول الخارجين إليها، بيده مقصّه وباليد الأُخرى مشطه. وأخرج معه الزبون الذي كان عنده. وقد نكون حسبناه كان يضحك مع غيره من الضاحكين على الذكريات الجميلة التي أحيتها زنوبا بعودتها المفاجئة. وقد نكون أخطأنا في هذا الحساب. كان معروفًا عنه أنه تلطّخ بالسياسة في ماضي شبابه.

ولذلك كان ينظر إلى الأُمور من جوانبها الجديّة. ومنذ أن أصبحنا على هذا الوضع الذي نحن فيه، التزم الصمت في الأُمور السياسيّة وأغرق همَّته في مغائر الأسرار الشخصيّة لزبائنه ومعارفه. وظلّ لا يضحك إلاّ بجِدّ، ولا يمزح إلاّ بجِدّ.

ولكنه لم يقوَ على الصمت في هذه الزوبعة التي أطلقتها النوريّة. أراد أن يتكلّم، فيشترك في إضحاك الآخرين، وأن يبتعد عن السياسة خمس عشرة سنة، خصوصًا أمام عساكر البلدية، ومع ذلك وقع المسكين على رأسه وقعة دامية.

– أنت نوريّة. وما هذه البلاد بوطنك. فما الذي أرجعك من دون كل الغائبين؟

– وهل بقي لك وطن يا حلاّق العقول؟ ماذا تحلقون في بلادكم هذه: شعور الناس أم جذورهم؟ الفلافل أرسخ جذراً منكم. فلقد دفنت حكم الأتراك وحكم الإنجليز، وعمّرت بعدهما.

ولم يعرف القاعد على عتبة الستين ما إذا قهقه شيوخ الوادي ضحكًا على الحلاّق أو لم يضحكوا. فقد كان عليه أن يقوم عن عتبته ليندمج في سابلة الحياة التي لا تنقطع بعد أن بدأ عساكر البلدية في تفريق المتجمهرين.

وتفرّق الصبيَة يشترون الفلافل من كشك في أقصى الوادي، تُصنع الفلافل فيه على الطراز الحديث. ولكنها بقيت فلافل، الفلافل القديمة.

*

فلافل حَم(**).

– فلافل شرقيّة.

– فلافل، نصف رغيف.

– فلافل، واحد كامل.

– ملك الفلافل!

*

– إلى أين يا زنوبا؟

– أعود من حيث جئت.

– دقيقة أُخرى يا زنوبا.

– وعساكر البلدية؟

– لا تتركينا يا زنوبا!

– ما تركتكم قطُّ. إحكوا لأولادكم عنّي حتى إذا عدت، لا تذكرني هند وخدها، ولا الولد الجعدة وحده، ولا علي البقّال وحده، ولا الكنز الباقي وحده، ولا القاعد على عتبة الستين وحده – أين ذهب؟ – ولا حلاّق السياسة وحده. بل يذكرني أولادكم أيضًا. فأعود حينئذ وسأرقص: أيديَ بأيدٍ متشابكة خارج هذا الوادي، في الفضاء الواسع، مع أولاد بائع البلاستيك أيضًا، وأولاد عساكر البلدية.

ومضت عن الوادي، كما هبطت عليه، من باب الطلعة، زنوبا النوريّة الحسناء، هي هي كما كانت قبل ثلاثين عامًا، ما تغيّر فيها شيء. فخلّفت وراءها على طول الوادي جلبة كما تخلّف زوبعة عابرة تسحب معها وإليها كل الآنية المعروضة في سوق الفخّار.

لو كان وحده الذي رآها تضمّ أضلعه على هذه الرؤيا وتركها له، وله وحده! ولكنه لم يكن وحده الذي رآها. ولو جئت الحقيقة فإنه ليس وحده!

(٣)

أسنان الحليب

– فما أبكاك الآن يا أبتِ، بكاء العروس؟

– رأيت أُختك الصغيرة تطلع مع الشمس على الشرفة، وترمي إلى الشمس سنّ الحليب وتدعوها:

يا شميسة، يا شميسة، خُذي سنّ الحمار وأعطني سنّ الغزال!

وقد جرى لنا هذا الأمر أيضًا حين كنّا في عمرها. وربما كنّا ودّعنا أسنان الحليب بحسرة. ولكننا تطلّعنا إلى أسنان الغزال.

– فماذا؟

– أعجبُ من نظريّات صديقي السوداوي ما وجدت نظرية. يقول إنه لو جاء آدميّ من كوكب آخر إلى أرضنا، لاعتبر كوكبنا عالم أموات وأيتام: عدد أحيائه نقطة في بحر عدد أمواته. خفّف الوطء! وما ولدٌ إلاّ ويتيتّم.

– فماذا؟

– هذه نظرة واحدة إلى عالمنا: النظرة الورائية. ولكن هناك نظرة أُخرى. النظرة الأمامية. فما من موت إلاّ وتعقبه حياة. والأولاد يصيرون آباء. وسابلة الحياة لا تنقطع.

– فماذا؟!

– إنما العاقل من ينظر إلى الحياة بعينيه الاثنتين.

– فماذا؟

– قُدمًا قُدمًا. هذا هو طريق سابلة الحياة التي لا تنقطع.

ارموا أسنان الحليب إلى الشمس.

(آذار ١٩٦٣)

(*) وادي النسناس في حيفا.

(**) فلافل ساخنة، بالعبرية.

قدر الدُّنيَا

تمثيليّة في فصل واحد

أشخاص المسرحيّة

أبو حسين: ربّ العائلة، فيما فوق الستّين من عمره.
أُم حسين: زوجه، تجري وراءه في العمر.
الجدّة: والدته، عجوز في الثمانين غير المختلف عليه، قعيدة السرير، هرمة خرفة.
حسين: ابنه البكر، في الأربعين، ويسكن وحده مع زوجه وأولاده.
حمدي: ابن أبي حسين، شاب في الخامسة والعشرين.
حسنية: ابنة أبي حسين، فتاة في العاشرة.
فاطمة: زوجة حسن بن أبي حسين، اللاجئ في لبنان، على بقيّة من شباب. وتسكن مع العائلة.
فتحي: ابن فاطمة، طفل في العاشرة.
صوت: شرطي.

المنظر

غرفة الديوان في بيت أبي حسين. مقاعد قديمة وديوان من خشب فوقه فرش ومساند. التأكيد على النظافة على الرغم من كل الشائعات المغرضة. مدخل الغرفة في طرف. وفي الطرف الآخر سرير حديديّ استلقت عليه الجدّة. وفي الوسط نافذة تُشرف على الطريق.

أبو حسين جالس وأمامه بَكرج القهوة السّادة. أُم حسين تروح وتجيء، تضرب كفًا بكف وتهمهم. تلاحقها نظرات أبي حسين وفاطمة التي انتحت زاوية، حانقة. حمدي على الديوان في ثياب النوم. يفتح جهاز الراديو ويغلقه بعصبيّة.

يُفتح الباب بشدّة فيدخل حسين، دون استئذان. تهرول وراءه حسنيّة حتى تجلس على سرير جدّتها تحت قدميها. وأما حسين فيظلّ واقفًا يُجيلُ نظرات الامتعاض والتأفّف حواليه.

الوقت: بعد العاشرة مساء.

حسين: يا ستّار يا حفيظ.

أبو حسين: أُقعد.

حسين: بعثتم حسنيّة ورائي في نصف الليل حتى نتَقَهوَن؟ خير؟

فاطمة (صارخة): لا تحكوا له.

أبو حسين (ينتهرها): إخرسي!

فاطمة: خرست.

أبو حسين: إنزلي إلى أولادك يا وليّة!

حمدي (قافزاً من مكانه): عندك! لا تغيب عن ناظري حتى نشوف حلّه. عزارة وعليها شهود؟

(لا يزال حسين في موقفه قرب الباب. ثم يتخنصر).

حسين: وبعدين؟

أُم حسين: أخوك يا ولدي.

حسين: حسن؟ مات؟

(ويتهالك بالقرب من والده الذي يقدّم له قدح قهوة).

فاطمة: أسيادك ماتوا.

أبو حسين: إخرسي!

الجدّة: هيك صار مع ابن المتهومة. قتلوه يا ولدي وهو راجع إلى بيته. كان شيخ شباب ينزل العروس عن فرسها. كان عبد اللّه إبن المتهومة.

حسنيّة: شفتيه يا ستّي؟

أبو حسين: رجعت إلى أيام صباها. اللّه يهوّنها.

حسين: مال حسن يابا؟

أُم حسين: عاد من لبنان يا ولدي.

حسين (يقفز من مكانه كالملسوع): ما أرجعه؟ هل مسكوه؟ وأينه؟

أبو حسين: هدّي على بغلتك.

فاطمة (صارخة): لا تحكوا له.

أُم حسين: خلّي الرجال يتحدّثوا.

الجدّة: كان يسوى عشرين زلمه. عبد اللّه إبن المتهومة..

حسنيّة: شفتيه يا ستّي؟

حسين: وأين حسن الآن؟

أُم حسين: أملنا فيك يا حسين يا إبني. الدم يا ولدي لا يصير ماء. أخوك يا حسين.

حسين: أخي؟ كل عمره يخرّب بيتي. وأين هو الآن؟

حمدي: تحت. عند أولاده في العقد. الأولاد نائمون. بالقوّة أخرجنا الست من عنده (يشير إلى فاطمة). عزارة وعليها شهود.

فاطمة (منتحبة): سيخطفونه من أحضان أولاده دون أن يروه. عيشوا يتامى يا أولادي. مثل ما ودعتِ تلاقي

يا فاطمة. سيأخذونك يا سيّدي ويا تاج رأسي (تبكي).

الجدّة: عبد اللّه إبن المتهومة قتلوه وهو راجع إلى بيته. كان يسوى عشرين زلمه.

حسنيّة: شفتيه يا ستّي؟

الجدّة: كانت عينه الكحلا عليّ قبل ما يطلبني جدّك. ولكن اللّه سلّم. كنت عشت بلا رجل وبلا ولد. أريَح..

حمدي: مليح أن الخرف خلّص على عقلها. هي في واد ونحن في واد.

حسين: وأخونا عادل الثورجي؟

حمدي (متهكّمًا): البطل ما رجع بعد. قال عنده اجتماع. ثورجي اجتماعات..

حسين: يجب أن لا يعلم بالأمر. فيفضحنا.

أبو حسين: يفضحك ليه يا حسين. نويت على تسليم أخيك؟

حسين: وهل خائف أنا من هذا الأزعر؟!

فاطمة: أزعر من يدوس على صدور أطفال أخيه.

أبو حسين: إخرسي!

حمدي: على مهلكم. من قال لكم إن عادل سيدافع

عن أخيه العائد. حزبه يعتبرهم متسلّلين.

أُم حسين: حرام عليك يا حمدي.

حسنيّة: عادل يدافع عن العرب.

حسين: ما بقي إلاّ أنت يا جميلة بوحيرد.

أبو حسين: أُسكتي يا فلعوصة.

الجدّة: ما لها المتهومة؟ أولاد الحرام اتّهموها بالحرّاث. قدّ الجبل. وأبوك أحسن؟ كان يقفل علينا الباب ويأخذ المفتاح معه ولا يعود من عكا إلاّ مع طلوع الفجر. اللّه يلعن أولاد الحرام.

حسين: متى شرّف حسن؟

أبو حسين: من ساعة. أعفر أغبَر كأنما هو عائد من التوانة.

حسين: وهل رآه أحد؟

أبو حسين: كان الدرب خاليًا. وما مرّت غير سيارة شيد. سيارة ابن أبي أحمد. لا يوجد غيره في الحارة.

حسين: رآه؟

أبو حسين: يخرج قبل الدغشة ويعود والناس نايمة. بالكاد يعبر فوق عتبة داره حتى يقع كالقتيل.

أُم حسين: وشوعي..

حسين: اليوم الحجارة صارت ترى والحيطان تحكي.

العاقل يخاف من خياله.

أم حسين: ألا تريد أن ترى أخاك يا حسين؟

حسين (يعول كالطفل): وأولادي، محمود وصالح وخديجة وعبد اللّه، من سيطعمهم إذا حبست؟ وفوق البيعة أنا مديون يابا.

الجدّة: عبد اللّه إبن المتهومة كان تاجرًا كبيرًا. متلّل قد العمّال. رجله رطل. يحطّها في كفّة الميزان ويقول للبدوية: توكّلي. رجلي رطل لا زيادة ولا نقصان. وحاجّ كمان. قتلوه يا ولدي وتبعثرت أمواله.

حسين: إذا بقينا بعد حسن يا ستّي، فقتلنا لن يكون إلاّ على يدك، قولي إن شاء اللّه.

الجدّة: إن شاء اللّه..

حمدي (متهكمًا): لو كان أخي عادل موجودًا، لقال لك: ألا يستطيع أولادك أن يعيشوا إلاّ على حساب أولاد حسن؟

أبو حسين: وأنت يا بطل، إيش تقول؟

حمدي: أنا؟

فاطمة: خلّ حمدي جنب الراديو يا عمّي!

أبو حسين: يقطع الراديو وساعته. حتى مخبإ تِتِن لا يصلح. رُح استشر لنا الراديو لعلّه يُفلح.

أم حسين: ألا تريد أن ترى أخاك يا حسين؟

الجدّة: خُذ صفاح مثل اللواح؟

حسين: سأراه يامّا لمّا نشوف حلّة. (وكأنه فطن لأمر) وفاطمة؟ هل كانت معه؟

فاطمة (تتخنصر): أسور(*)؟ زوجي وأبو أولادي.

حسين (مُحْتَدًّا): وحدك؟

حمدي: أنا فطنت للأمر. لم نتركهما وحدهما لحظة واحدة. أحضرتها هنا بالقوّة. ولن تغيب عن أنظارنا حتى يحلّها ربك.

حسين: خلّف بالتسللّ كمان! كان أهون علينا أن نقول إنه إبن حرام من أن نقول إنه إبن حسن.

الجدّة: إبن حرام كان عبد اللّه إبن المتهومة. كان يسوى عشرين زله. ومْدَمْيَط. أولاد الحرام لا تغدر أشكالها. لليوم ما حدا عرف من قتله.

حسنيّة: إبن حرام يا ستّي؟

أبو حسين: إخرسي!

الجدّة: زمان الخرس راح يا صايع. من يوم ما مات أبوك انحلّت عقدة لساني. كلّ دولة وانقتل حاكمها.

أبو حسين: أما مصيبة! ما كنت أحاكيك يا عجوز. كنت أُسكِت حسنيّة.

الجدّة: زوّجها قبل ما ينطلق لسانها. آه. خرس عند أبيها وخرس عند زوجها. وأولادها يطلعون خُرسانًا، يخلّي لَك حسين يا أبا حسين، اللّه يهنّي الدولة فيكم.

أُم حسين (تضرب كفًا بكفّ): لمَن نروح ولمَن نحكي. لو كنّا نصارى رُحنا للمطران. يقولون إنه يحلّ عن المشنقة.

حسين: هنا لا ينفع مطران ولا حاخام. أنا فاهم الطابق أكثر منكم. أفطرنا سوا. ولكن لماذا، لماذا عاد؟

فاطمة: عاد إلى أولاده يا أبا الأولاد. عاد إلى حارته. عاد إلى بيته. عاد إليّ (تبكي).

حمدي: اسمع يا أخي. سألته كيف عاد. فقال: إنه سمع عنك وأنك تحلّ وتربط. قال يريد أن يرى أولاده الذين لا يعرفونه. قال حنّ لخبز الطابون. قال جاء وأمله فيك. قال سمع أن كلمتك عندهم لا تصير اثنتين.

حسين (يضحك بمرارة): أحلّ وأربط قال! نضحك على بعض ليه؟ غير ربط العقد لا أستطيع. صحيح أن كلمتي عندهم لا تصير اثنتين. ولكن بأي شيء؟ بتخريب البيوت كلمتي لا تصير اثنتين. غير تخريب البيوت لا أستطيع. بهذا ولا مرّة أفشلوني.

حمدي: وبيتك؟

حسين: بيتي معمّر على قبور. إذا كان عندكم بيت عامر نخربه هاتوه لي لعلهم يقبلونه فدية عن حسن. (وبصياح) ولكن إبعدوا عن بيتي!

(فترة وجوم)

الجدّة: بيته كان عامرًا. بيت عبد اللّه إبن المتهومة. سمن وزيت وقمح وكرسنّه. ساحة يخيل فيها الفارس. مولد رايح ومولد جاي. والكرباج لا يرتفع عن ظهور الحرّاثين. والمتصرّف صاحبه. وكل العساكر. وأين بيتك اليوم يا إبن المتهومة؟ هبط وصارت عظامه مكاحل!

حسنيّة: شفتيه يا ستّي؟

الجدّة: شفته. وراح أشوف مثله مثايل. ستّك الكسحا يا مضروبة دعست على الموت في صدره.

(يقف حسين وكأنما اكتشف أمرًا بالغ الخطورة)

حسين: عادل؟

فاطمة: ما له عادل؟

حسين: أزعر. ولكن خلاص حسن على يديه.

أبو حسين: قُل.

أُم حسين: اللّه يخليك لنا يا عادل. الشاطر حسن.

دائمًا أقول ما فيه غير الشوعية.

حمدي: طُز!

أبو حسين: طُز في عينك. هالطزّ تضمن لأخيك هويّة! خلّ كلامك على قدّك يا ولد. قُل يا حسين. البركة فيك يا ولدي.

حسين (مترددًا): على شرط أن تفهموني. أنا أبحث عن طريقة يمكن بها أن ننقذ أخانا العائد. فيبقى عندك وعند أولاده يا فاطمة. يبقى في وطنه. الوطن العزيز.

حمدي: اللّه يعزّك. ولكن، أين يدخل الشاطر حسن؟

حسين: ماذا كان عليّ أن أفعل يا والدي؟ إمّا أن أعيش مشرّدًا مثل حسن، واللّه وحده يعلم ماذا كان سيحلّ بكم بعدي، أو أبقى في وطني، مع كل الغُلب، وأضحّي بسمعتي من أجلكم. ومن أجل الوطن.

حمدي: يا يعيش!

أبو حسين: إنّما الأعمال بالنيّات يا بني.

حسين: وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم. وأنا أيضًا كرهت الطريق التي سلكها عادل.

حسنيّة: عادل يحبّ العرب.

حمدي (متهكمًا): ويحب اليهود كمان.

أُم حسين: وهل محبّة الناس عيب؟ لمّا جماعته ناموا

عندنا قاموا يقولون لي «إيما»(**).

أبو حسين: خلّونا بعلقتنا. قُل يا حسين قُل.

حسين: تذكرون محمود إبن صفية، الذي عاد من لبنان من سنتين. كيف رجع؟

أبو حسين: أخوه باع أرضياته.

حسين: خدمة. عدّة قبال عدّة.

أبو حسين: وهل أبقيت لنا أرضًا يا حسين؟ إذا كان العقد يفتدي حسن، فنحن مستعدّون أن نقدّمه لهم ونعيش في براكيّات معلول.

حسين: إن شاء اللّه الثمن يكون أرخص يا والدي.

حمدي (متهكمًا): بهمّتك.

حسين (محتدًّا): لا بهمّتك. يا تتركني أتكلّم. يا شرِّف حلّها. غير الكلام اللّي قد الجبل ما فيه منك. لو كان فنّكم معروفًا في زماني لكسبت الدنيا والآخرة. رُح تقومَج على عادل. أما عليّ فقد دفنّاه سوا.

أبو حسين: مش وقته. خلّينا بهمّنا. إحكي يا حسين.

الجدّة (مشيرة بيديها الاثنتين): دور الحكي عليّ. لو كان بيتنا من قريب جبت لكم طبق زبيب.

حسنيّة (مسرورة): هذا بيتك يا ستّي. هاتِ الزبيب..

الجدّة: لا بيتي ولا شي. بيتي على ظهري علا. لا أُمّك

حاملتني. ولا امرأة عمّك.

أم حسين: ولا الموت حاملك.

الجدّة: يحملكم كلكم. (تولول) واينَك يا حبيبي يا حسن؟ على مَن تركت الدار؟ هل تقدر هذه الزنود أن تحمل في نعشي؟ عادل يداه لا تزالان طريّتين. وحسنيّة خرسنوها. لن أموت يا أُم حسين قبل ما يعود حسن ويشتدّ ساعدا عادل!

أبو حسين: اللّه يهوّنها. العجوز ليست خرفانة وإنما تتخرفن. تحسبها انتهت وهي مثل ضمير الخاين: جمرة تحت رماد. جذعها أقوى من زيتونة روميّة. (متوجهًا نحو حسين) لا تلفّ يا بني يا حسين ولا تدور. ماذا يستطيع عادل أن يفعل؟

حسين: أنا لا أضمن شيئًا. ظنّي أن مفتاح الفرج بيد عادل. لا تسألوني ولكنّي أعرف هذه الطوابق. شايف يابا قدّيش الأرض عزيزة عليهم، الشيوعي أعزّ. إذا قبل عادل أن يشتغل معهم مُخبرًا على جماعته، من تحت لتحت، مع بقائه شيوعيًا، أمام الناس وجماعته، فأنا أضمن الهويّة لحسن.

حمدي (بصرخات هستيريّة): مش ممكن. مش ممكن. ولا قوة تستطيع أن توصل أخي عادل إلى هذه المواصل.

أنا أكرهه وأكره شيوعيته. ولكنه صاحب مبدأ. جماعته صحابي ومعشري وخلاّني. واين أروح من حكي الناس؟ كنّا بواحد صرنا باثنين. يرضيك هذا الخَلَف يابا (ويتهالك على مقعده).

حسين (بحنق): هُس. لا تسمِّع علينا الناس. (بتهكّم) غيرتك من عادل ضيّعت صوابك. لو كانت بضاعتك عزيزة عندهم لاقترحت أن تكون أنت الفدية. ولكن من هالخروب، والحمد للّه، توجد سدّة ملآنة. وعلى مَن ستكون مُخبرًا؟ على الراديو؟ على عبد الحليم حافظ، أم على فايدة كامل؟ روّق دمك يا خايب!

(ينتصب حمدي قبالة أخيه حسين ويبصق في اتجاهه بصوت شديد. فيهجم حسين عليه رافعًا قبضته ليضربه. تصرخ أُم حسين وفاطمة. وخلال هذه الفوضى يسمع لغط الجدّة: «كان يسوَى عشرين زلمه». ولكن الأيدي تتسمّر. والأرجل تزرع في أماكنها. الوجوه، في ذهول، تتوجّه نحو النافذة حيث ينطلق منها، من الطريق، صوت جهوريّ ينادي. فيحوّل الحركة إلى سكون الاستسلام).

الصوت: يا أبا حسين، يا أبا حسين!

أبو حسين: يا ستّار يا حفيظ.

حسين (صفراويّ الوجه): هذا البوليس أبو إسحق. انتهى كل شيء. سيحبسونني بتهمة إيواء متسلّل. وتضيع الوظيفة.

أم حسين: ولدي. ولدي!

فاطمة: (تهمّ بالخروج): لعلّهم أن يسجنوني وأولادي معه في زنزانة واحدة! (ولكن الصوت ينطلق مرّة أُخرى فيسمّرها في مكانها).

الصوت: يا أبا حسين. يا أبا حسين. طُلّ!

حسين (كلّه حركة): لا تذكروا له أنني موجود. سأختبئ في المرحاض حتى يأخذوا حسنًا. لا تُقاوموا. سلّموه واكتموا سرّي. ما بقي لكم غيري. إرحموني. (يمرق خارجًا كالسهم).

الجدّة: وهل عبد اللّه إبن المتهومة رحم الحرّائين؟

حسنيّة: ستّي، ستّي، خبّيني.

الجدّة: لا تخافي يا مضروبة. أُطلبي من اللّه ألاّ تتخبّي في يوم من الأيام. ولا عند زوجك. خبّوني وأقفلوا عليّ الباب. وأخذوا المفتاح معهم فوأدوني. كوني كعبّاد الشمس، حيث الشمس توجّهي نحوها.

الصوت: يا أبا حسين، طُلّ! مالك يا زلمه منطرش؟

حمدي: طُلّ.

(ويتظاهر بالاهتمام بالراديو . فيفتحه على صوت مزعج . فيقفله مذعوراً)

الجدّة : إفتح الراديو وتخَبَّا فيه . وهات المفتاح أحطّه في عُبّي . أأمن لك من بيت الماء!

أبو حسين (يُطلّ من النافذة) : تفضّل يا أبا إسحق . كنت أقوم . ما انت عارف : همّتي ثقيلة وسمعي أثقل . لِمَ الحديث من النافذة والبيت بيتك؟

الصوت : الوقت مش وقت زيارة . ولا يصلح أن يراني أحد أدخل عليكم الآن . الحكاية أن البوليس الآن مسك ابنك عادل وغيره وهم يكتبون على الجدران « أرجِعوا اللاجئين » . قلت أمرّ عليكم وأُخبركم بالأمر لعلكم أن تخرجوه بالكفالة . الدنيا برد وابنكم ضعيف البُنية . ولا توجد بطّانيات في المركز .

الجدّة (تدفع حسنيّة من كتفها) : قومي إندهي صرصور باشا من علّيته . قولي له : ستّك عندها شنتيان نظيف يلبسه ويروح لأولاده!

(أبو حسين، وكأنما أيقظه كلام الجدّة من كابوس مزعج، يلتفت نحوها ويُطيل النظر فيها . ثم يوزّعه بين والدته وزوجته وفاطمة وحمدي . ثم يضحك حتى يغشى بالضحك)

الصوت: ما لك تضحك يا أبا حسين!

أبو حسين: كالطير مذبوحًا من الألم. من عادل ومن همّه.

الصوت: همّه علينا أثقل من همّه عليكم.

أبو حسين: ميّل يا أبا إسحق. كثّر خيرك.

أُم حسين: وقته؟!

الصوت: مش وقته. السلام عليكم.

أبو حسين: وعليكم السلام ورحمه اللّه وبركاته. اللّه يقدّرنا على مكافأتك (ويتحوّل عائدًا إلى مكانه).

حمدي: كافيته وزيادة. أمثال حسين قلائل. مثل المصل الواقي. وداوني بالّتي كانت هي الداء.

أبو حسين: خلصنا يا ولد. قُم نادِ أخاك وصالحه وقبّله من رأسه.

حمدي: لا يصلح اتفاقنا وبوسنا إلاّ في المراحيض. لحد هنا وبس (يخرج ممتعضًا).

الجدّة: كنّا نقضي حاجتنا في الفَلا. اليوم يعملون لها كرسي عرش. إن شاء اللّه ما يبقى غيرها عروش.

حسنيّة: إيش هي يا ستّي؟

أبو حسين: وبعدين معك يا عجوز. في إيش نحن!

الجدّة (تضحك): لو بقيتم تقضونها في الفَلا، بدون

أن تجاوروها مطابخكم، أين كان حسين سيختبئ؟

أم حسين (صارخة في وجهها): هذا هو الذي يشغل بالك يا عجوز؟ أين سنخبئه؟

الجدّة (بانزعاج، وكأنما انتبهت إلى عودة حسن لأوّل مرة): حسن؟ يختبئ؟ حسن من الممكن إخفاؤه، حسن قدّ الدنيا.

حسنيّة: حسن أخي يا ستّي!

فاطمة: حسن والد أطفالي يا ستّي!

أبو حسين: حسن إبني!

الجدّة: حسن جملي. حسن قدّ الدنيا!

(يُفتح الباب فتحًا هيِّنًا على يد نحيلة مرتجفة فيدخل فتحي. الطفل في العاشرة من عمره، في ثياب النوم. حافي القدمين. يفرك عينيه ويمسح دموعه)

فتحي (ولا يزال يمسح الدمع عن عينيه): كان زَله في الغرفة، كان يفيّقني ويقبّلني. قال: رُح لأُمّك وقُل لها سمعت وفهمت وعرفت. قال إنه راجع. قال إنه لا يمكن أن ينسانا. قال إنه يحبنا. قال إنه سيعود. وكان يامّا يشمّ شعري (يبكي).

فاطمة (تنفلت من قبضتَي ولدها وتُسرع خارجة): حسن! (وتخرج).

أم حسين (مولولة) : ولدي! (وتخرج) .

الجدّة : حسن قدّ الدنيا! حسن قدّ الدنيا!

أبو حسين : تعال يا فتحي . هل عرفت الرجل؟

فتحي (أمام جدّه) : لا يا سيدي . غريب .

أبو حسين : فلماذا تبكي، إذن، يا فتحي؟

فتحي : لأنه هو، الزله، كان يفيّقني ويبكي .

(أبو حسين يحتضن فتحي ويخفي رأسه في صدر الطفل)

الجدّة : حسن قدّ الدنيا! حسن قدّ الدنيا . .

(يسدل الستار)

(تشرين الأول ١٩٦٢)

(*) أسور – « ممنوع » بالعبرية .

(**) إيما – « أمّاه » بالعبرية .

مرثيّة . . « السَّلطعون »

« ليس آتٍ ببعيد
بل قريب ما سيأتي »

(عبد الله بن عبد الأعلى)

منذ أن جاورته، على المقعد الذي أكلته أسنان من سبقنا في المدرسة الابتدائيّة، لا أعرفه إلاّ بهذا اللقب – السّلطعون. أما هو فكان يدّعي أنه حمله معه من قريته. وأما أهله فقالوا إنه عاد به من المدينة. والحقيقة هي أن ألقاب ولدنتنا، مثل النكتة، لا يُعرف مصدرها. ولكنها تلصق، وهمّي فيها أكبر من همّه. فكنتُ أُلاحق هذه القضية. فلاحظت، فيما بعد، أن أُم الولد كثيرًا ما تكون البادئة بإطلاقه على ولدها. فألقابنا تشفّ عن طبائعنا. وأُمهاتنا أدرى بنا.

وكنت أحسب أن لقب سرطان البحر علق به على مظهره الخارجي. فإن مشيته غريبة – الكتف اليمين مندفعة إلى أمام، والقدمان منفرجتان مثل البركار المفتوح، اليمين تؤشر على اليمين، والشمال على الشمال في إصرار البوصلة. وإذا أضفت إلى ذلك قامته الطويلة النحيلة، وعنقه الممطوط، لا تحتاج إلى معرفة سابقة بهذا اللقب حتى تبادره به.

ولكنني كنت مخطئًا. فلمّا أُغرمت بصيد السمك، وتعرّفت على طبائع سرطان البحر، وعرفت صديقي المرحوم حريز اليقظان كما يعرف السرّ كاتمه الأمين، أدركت أن الألقاب تتناول ما هو أعمق من المظهر الخارجي، وتعرِّينا. كان المرحوم، في طيبة قلبه وفي سذاجته، أشبه بسرطان البحر في سذاجته التي لا نظير لها. ولو كان العرب أهل شواطئ

لاستعاضوا به عن النعامة في أمثالهم – يكون يجري مندفعًا، فما إن يرى ظلاً غريبًا في طريقه حتى ينقلب على ظهره، وينصب فكّيه استعدادًا للقتال، فيؤسر على أهون سبيل. ولو ظلّ يجري لنجا. رحمهما اللّه، صاحبي وسرطان البحر، ورحم كل أصحاب القلوب الطيّبة، المحاربين المنقلبين على ظهورهم، الذين يزيد عددهم على عدد رمل البحر!

وفكّرت مليًا في العنوان الملائم لهذه المرثية، التي طلبتها منّي في الأربعين على وفاة المرحوم حريز اليقظان، صديق العمر، حتى عُدت إليّ وأنت تقول إنك تريد منّي فيها، بالإضافة إلى تَعداد مناقبه، أن أُفسّر لأصدقائه الكثيرين كيف كنت أبتسم بل، كما اتهمتموني، كنت أضحك، من دون المشيّعين جميعًا، وأنا أسير معكم وراء جثمانه.

أما واللّه ما ضحكت يا أخي، وشر البليّة لا يضحك. ولكنّني ابتسمت لأنني وجدت، على حين غرّة، الجواب على السؤال الذي أقضّه طول حياته. ولو كنت وجدت هذا الجواب وهو على قيد الحياة، وأخبرته به، لابتسم معي. وفطنت إلى طيبة سرطان البحر. فجعلته عنوانًا. وستبتسم أنت أيضًا، حبًّا وحسرة، حين تعلم عنه ما علمت.

ما هي النهاية؟ هذا هو السؤال الذي ألحّ عليه طول الوقت. أنتم لا تعرفونه إلاّ «أبو فلان». وكان لهذا الاسم هيبة في

زمن الانتداب. ومن الأسماء ما له هيبة. وبقيتم وقتًا طويلاً ترجعون صدى صوته الذي انقطع. فقد أذهلته النكبة الأُولى فانطوى على نفسه. ولم يبرأ كليًا من هذا الذهول حتى ساعته الأخيرة. وأعجب ما في أمره أن صدمة حزيران قد ردّت إليه بعض أنفاسه، مثلما تفعل الصدمة الكهربائيّة بمرضى الأعصاب.

وكنت أتردد عليه في بيته. فلم أقطع ما تعوّدنا عليه، في زمن الانتداب، من تبادل الرأي والمُسارَّة. فجلسنا ننظر حوالينا إلى شعب، بقضّه وقضيّته، وقد هام على وجهه في ليلة غبراء. حدّثته عن البيوت التي دخلناها في حيفا فوجدنا القهوة مصبوبة في أكوابها، وما وجد أصحابها وقتًا لشربها قبل الرحيل. فحدّثني كيف رحل جيرانه، كأنما وباء خبيث انتشر في حارته. بدأ بالجار فانتقل إلى جاره. خلا بيت فأخلى ما حوله. وخرجت سيارة محمّلة بمتاع دار، فاكترى الآخرون دوابّ، وآخرون استدبّوا أرجلهم. وبادرني بالسؤال: ما هي النهاية؟

وأذكر يومًا حين عاد من زفاف أحد أقربائه في قرية بيت صفافا، في ضواحي القدس التي شقّتها اتفاقيّة رودوس، بالأسلاك الشائكة، إلى شقّين، إسرائيلي وأردني. عاد وقد استبدّ به هذا السؤال. قال إنهم شرّفوه بأن اختاروه ليتأبّط

ذراع العريس، «فلا تزال في هيبة هذا الاسم بقيّة». وكانوا يزفّون العريس في شارع القرية الوحيد. وعلى يسارهم الأسلاك الشائكة التي تحزّ القرية إلى قسمين. وسار العريس وحوله أقرباؤه وأصحابه في القسم الإسرائيلي، بينما سار بقية أقربائه وأصحابه، يهزجون ويزفّونه، إلى جانبهم من وراء الأسلاك الشائكة في القسم الأردني. وقد حافظ كل فريق على مقتضيات الامتناع الكلّي عن تبادل الحديث فيما بينهما لما في ذلك من اتّصال ممنوع بالعدو. هذا القريب بعدوّه القريب، وذاك القريب بعدوّه القريب، سوى الزغاريد التي تشقّ كل ما خلقه اللّه من أسلاك شائكة، ولا يفهمها الرقيب على القريب. فصاح: ما هي النهاية؟

في يوم آخر، حين استيقظنا على الخبر الداهم عن اعتقال عائلة الابراهيمي المعروفة، بجميع رجالها ونسائها. وهم جيرانه. فأخبرني همسًا بأن ابنهم اللاجئ في الأردن عاد متسللاً، واختبأ في الدغل، وأرسل في طلب أخيه، فجاءه. ثم جاءه والده. ثمّ جاءته أُمّه على رأسها طبق محمّل بالدجاج المحمّر. ثم جاءه إخوته وأخواته، وأبناء عمّه، وأخواله. فاعتقلوا جميعًا. لقد أتمّ سرد الحكاية همسًا، ثم صاح: ما هي النهاية؟ ومطّ عنقه الممطوط: أُريد أن أعيش حتى أرى كيف تكون النهاية.

والواقع أن سؤاله الدوّام هذا كان يهزّ خواطري. فأبسط أمامه رؤيانا السياسيّة عن المستقبل الممكن الوقوع، حيث تزول أسباب الكراهية والريبة بين الشعبين فلا تبقى قضية إقليمية أو قوميّة إلاّ وتنفرج عقدتها. ولا شك في أنني كنت أُردد على مسامعه حقيقة الفارق ما بين مسلكه ومسلكنا. فبينما هو يريد أن يعيش حتى يرى كيف تكون النهاية، نحن نريد أن نعمل من أجلها.

حتى ارتطمنا بحرب حزيران، وما بعدها. وعاد من زيارته الأُولى إلى مدينة نابلس وهو أشدّ اقتناعًا بِحَيرته – ما هي النهاية؟

قال: حتى أصحابك هناك لم تحتوِ رؤيتهم السياسيّة ما حدث. فهل حسبتم أنتم له أي حساب؟ لقد ناموا على حكم واستيقظوا على حكم آخر، فما هي النهاية؟

وحين عدت من زيارة رام اللّه للمرّة الأُولى بعد حزيران، والتقيت أقربائي هناك، هتف: هل دخلتها بسيارتك الإسرائيلية؟ قلت: نعم. فصاح: في سنة ١٩٤٨ اضطررت إلى ترك بيتك في رام اللّه والمجيء إلينا، فهل تصوّرت، حتى في أضغاث أحلامك، هذه العودة إلى بيتك في رام اللّه؟ ما هي النهاية، ما هي النهاية؟

ولم أشأ أن أُخبره بأنني وجدت البيت الذي سكنته في

رام اللّه مهجوراً منذ أن أخليته. وبأنني لففت حوله، وطلعت على عتبته. ونظرت من إحدى النوافذ فرأيت عنكبًا قد نسج خيوطًا احتوت السقف كله. فتأمّلت أن يكون من بقايانا. فسألته: هل تذكرني؟ فظلّ ينسج خيوطه.

وقلت لصاحبي مواسيًا: أتدري؟ نحن لا نتساءَل عن النهاية منذ سنة ١٩٤٨ فقط، بل منذ بدأنا نشترك في المظاهرات والإضرابات.

فقال: ما أبعد ما قطعنا، ولا نزال نسيره فتتلوّى الطريق أمامنا، وفي كل عطفة مفاجأة، وفي كل مفاجأة عِثار. فما هي النهاية؟

ومنذ ذلك اليوم، في أواخر سنة ١٩٤٨، حين اقتادوه مع الأُلوف من رجال بلده إلى الساحة العامّة مستنطقينهم عن السلاح المخبوء، ولتعريف الرجال غير المرغوب فيهم، ومرّ مع غيره أمام رجال غطّوا رؤوسهم بأكياس خيش مثقوبة للرؤية، فأشار رجال الخيش عليه وعلى المكان الذي خبّأ فيه البندقية. وكان يحسب أن أحداً سواه لا يعرف مكانها، وسجنوه، وهو يرفض الاشتراك في أي عمل جماهيري. وكان يقول لي، حين كنت أجيئه مستحثًّا: لا يصلح العمل المُجدي إلاّ مع ناس تأتمنهم. الحذر ضرورة، والثقة طيش. حزبك على الرأس والعين، ولكنه مفتوح، فلا أستطيع أن أُبذّر حياتي فيه هباء.

الآن جاء الدور على تعداد مناقب الفقيد. لقد كانت منقبته الوحيدة أنه رفض أن يكون علينا حين تهاوى الرجال مثل ذباب على جيفة، ينهشون لحومنا الطريّة وهم يعتذرون: نريد أن نعيش! لقد أحجم عن العمل معنا، ولكنه رفض التفريط بما كان لاسمه من هيبة، فعاش محترسًا – هذه هي منقبة المرحوم حريز اليقظان التي دفعت إلى السير وراء جثمانه مئات عارفي فضله، حاملينه إلى مثواه الأخير.

وبمرور الأيام أثقلت اليقظة على صاحبنا المرحوم حريز اليقظان. وحين تبيّن لنا أن واحدًا من جماعتنا إنما هو عميل مأجور زُرع في صفوفنا، وجئته لأُخفّف من وقع الانكشاف عليه، بادرني مهتاجًا: أرأيت؟ قلت: ففي أي مكان رأيت غير هذا، وهل استطاع المزروعون، في يوم من الأيام، أن يحرقوا ما زرعه الشعب بأكفّه؟

ثم جاء ذلك اليوم الحاسم، حين زرته فلم يلقني بقهقهته المسموعة، التي لم يبقَ مسموعًا عنه سواها. كان متجهمًا ويحدّثني بتحفّظ. وكان ساخطًا ومتأفّفًا. وما إن بادرته بحديثنا العاديّ، عن السياسة وما إليها، حتى أطلق جهاز الراديو على عقيرته، وقارب أُذني هامسًا أنهم استدعوه أمس، وحقّقوا معه في حديث جرى بيني وبينه في بيته، وأن ما نقلوه عنه صحيح، وأنه متأكد من أنهم زرعوا، في هذه الغرفة

من بيته، آلة التقاط للصوت، فلا يصلح الكلام هنا. قلت: ولا في أي مكان آخر؟ قال: ولا في أي مكان آخر. قلت: بل يصلح الكلام الصحيح في كل مكان. قال: الحذر الحذر!

ومنذ ذلك اليوم لم يعد حديثه معي سوى همهمة. فإذا سألته رأيه في أمر، أطلق من فمه حشرجة، تارةً مبحوحة وتارة خشنة، على حسب المدلول الذي يريده لهذه الحشرجة. فإذا ألححت عليه، رفع حاجبيه تارة، وأغمض عينيه أو فتحهما تارةً أُخرى. وكان عليّ أن أفهم من هذه الحركات والهمهمات والحشرجات رأيه في الأمر.

وفي إحدى هذه الجلسات نسيت أنني حيوان ناطق فجاريته في لغة السرّ العميق التي اختارها إمعانًا في الاحتراس. فصرت أُهمهم ردًا على همهمته، وأرفع حاجبي فيخفض حاجبيه، فأُخرج الحشرجة من فمي فيردّ عليّ بأحسن منها. وبقينا على هذه الحال حتى أُديرت القهوة، فانصرفت.

وما ناديته، بيني وبينه، مرّة إلاّ بلقب الطفولة – السَّلطعون. وكان يناديني، هو أيضًا، بلقبي. ولن أُطلعك عليه لأن هذا الأمر هو مهمّة مَن سيكتب رثائي، إذا ما وجد. غير أنني، في زياراتي الأخيرة له أصبحت أُناديه برهين المحبسين: بيته وصدره. فكان يجيبني بكحّة مصدورة تستغرق أكثر الوقت الذي أقضيه معه.

فالمرحوم حريز اليقظان، في أيامه الأخيرة، استعان بالخمرة على احتمال الكتمان، حتى أدمن عليها. وكان لا يخرج من بيته إلاّ لقضاء هذه الحاجة أو ليحملها معه إلى بيته محترسًا.

حتى كان ذلك اليوم المشؤوم، حين فاجأنا بحضور الاجتماع الانتخابي الأخير الذي عقدناه. وتصدّر القاعة وقد نصب عنقه استعدادًا للقتال. وكان واضحًا أن صاحبنا قد ثمل.

وبينما كان خطيبنا في عنفوان خطابه، والتصفيق له يتابع التصفيق، وأمل الحياة يدفع إلى العمل، إذا بصوت يعلو على صوت الأكفّ، وعلى صوت الهتافات، يقطع كل نأمة ويُذهل الحضور. كان صاحبنا المرحوم حريز اليقظان يهتف، بأعلى ما في حنجرته التي حبسها دهرًا، بهتافات قوميّة متطرّفة.

تجمّعنا حوله، وأخذناه بأقصى ما استطعنا من هدوء، خارج القاعة. وذهبت معه إلى بيته حيث وضعته في الفراش وقد غاب وعيه، وكان يردّد دونما رابط سؤاله المقيم: ما هي النهاية، ما هي النهاية؟ ولم أتركه حتى سمعت شخيره.

ولكنهم لم يتركوه. وتعرف كيف اعتقل في الليلة نفسها. وخرج بعد أُسبوع وقد ضُرب وأُهين. فوقع في الفراش. ولم يخرج من بيته بعدها إلاّ محمولاً على الخشبة.

وحين سرت مع أصحابه الكثيرين وراء جثمانه، وتطلّعت إلى فوق، حيث كان محمولاً على الأكفّ، سقطت على

رأسي تفاحة نيوتن، فوجدت الجواب على السؤال الذي أقضّه طول عمره: ما هي النهاية؟ فتبسّمت.

هذه هي النهاية، يا صاحبي. نهاية الذي لا يتلفّت حوله بل يتلفّت إلى داخله، فلا يرى حوله سوى الظلال الغريبة، فينقلب على ظهره وينصب فكّيه للقتال. أيهما تقاتل: نفسك أم ظلالك؟

وبعد أن وارينا جثمانه في مثواه الأخير، وترحّمنا على نفسه الطاهرة، عُدنا إلى أعمالنا نجمع الرجال مع الرجال لنوسع في الظلال التي يتفيّأ بها حاثّو الخطو نحو ما سيأتي.

المحتوى

هذا الكتاب ٧

« سداسيّة الأيّام الستّة » :

حين سَعِد مسعود بابن عَمّه ١١
وأخيرًا نوَّر اللوز ٢٣
أُم الروبابيكيا ٣٩
العودة ٥١
الخرزة الزرقاء وعَودة جبينة ٦٣
الحبُّ في قلبي ٧٣

وقصص أُخرى :

بوّابة مندلبَاوم ٩٥
النوريَّة ١٠٧
قدر الدُّنيَا ١٢٩
مرثيّة « السَّلطعون » ١٥١

اميل حبيبي

جدل الخصوصيّة والإبداع

يستحضر اسم إميل حبيبي على الفور الأديب الأبرز من بين الآباء المؤسّسين للرواية الفلسطينية المعاصرة، لا بمعنى الأسبقيّة الزمنيّة بل بالمعنى الأعمق للتأسيس، الذي يُحيل إلى فنّية الرواية ذاتها، شكليًا وروحيًا. وذلك فضلاً عن كونه يمثّل تيارًا أساسيًا في الرواية العربية المعاصرة، لحمته وسُداه تطعيم الشّكل الروائي الحديث بعناصر سرديّة وغير سرديّة مجتلبة من التراث العربي والحكايات الشعبية وأشكال السّرد الشفوي.

منذ عمله الإبداعي الأول «سداسيّة الأيام الستة»، الذي ظهر بعد عدوان حزيران / يونيو ١٩٦٧، وحتى «خُرَّافية سرايا بنت الغول»، التي ظهرت في ١٩٩١، وما بينهما من أعمال، استطاع إميل حبيبي أن يشيد بناءه الروائي على موادّ متنوّعة متغايرة وأن يؤالف نصّه في دوائر متقاطعة وأن يجعل الكتابة الأدبية الساخرة تُحلّق في مناطق لم تكن مطروقة.

المتابع لأعمال إميل حبيبي على مدار أعوام إبداعه كافّة، سيجد أن هذا الكاتب الفلسطيني الكبير لم يتخلَّ عن أُسلوبه الذي ربّما بلغ ذروته في «المتشائل»، ومن خلاله شقّ طريقًا جديدة الجدّة كلّها للرواية العربية، لا تزال تغري العديد من النُّقاد والدّارسين بالمزيد من البحث والتقصّي في أدبه المتكامل وأُسلوبه المخصوص.

رحل إميل حبيبي في الأول من أيار عام ١٩٩٦ عن ٧٥ عامًا (مواليد ٢٩ آب ١٩٢١). وخلال حياته العريضة ملأ الكثير من المواقع بجدارة لافتة. وفي جميعها ترك علامات فارقة على مسيرته، التي قد يوجز أحد جوانبها الأكثر إثارة العنوان الزخم: جدل الخصوصية والإبداع.

فقد كان أديبًا ومسرحيًا وكاتب مقالة وقائدًا سياسيًا وابنًا بارًّا لشعبه العربي الفلسطيني. كما كان العاشق الأكبر لمدينة حيفا – مسقط رأسه.

إبداعات إميل حبيبي في مختلف المضامير السالفة، التي يمكن من خلالها الاغتراف من مذاق الكينونة الفلسطينية عمومًا وفي الدّاخل خصوصًا، حافلة ضمن أشياء أُخرى بتوصيفات للمكان الذي عاش

تبدُّلاته في منعطفات المصير الإنساني. ومن الطبيعي أن تكون متَّصلة اتصالاً وثيقًا بمدينة حيفا، حيث اختار أن يرقد فيها رقدته الأبديّة داعيًا، في وصيّته الغنيّة بالدلالات، إلى نقش عبارة «باقٍ في حيفا» على شاهد قبره عند سفوح الكرمل وعلى مقربة من زرقة البحر.

حاز إميل حبيبي على جوائز عديدة عربية وعالمية، لعلّ أبرزها «وسام القدس» (١٩٩٠)، أرفع جائزة فلسطينية. وشارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات الثقافية العربية. واختير في ١٩٩١ بوصفه الكاتب الأهم في العالم العربي من قبل مجلة «المجلة» اللندنية. وكان عضوًا في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي) عن الحزب الشيوعي في السنوات ١٩٥٣- ١٩٧٢، وتولّى رئاسة تحرير صحيفة «الاتحاد» في السنوات ١٩٤٤- ١٩٨٩، حيث عمل على إنجاز تحويلها إلى جريدة يوميّة. وقبل وفاته أسّس «مشارف»، المجلة الثقافية العربية الصادرة في حيفا، سوية مع إنشاء «دار عربسك للنشر».

أهم كتبه الأدبيّة المنشورة: «سداسية الأيام الستة» (١٩٦٩)، «المتشائل» (١٩٧٤)، «لكع بن لكع» (١٩٨٠)، «إخطيّة» (١٩٨٥)، «سرايا بنت الغول» (١٩٩١)، و«أُم الروبابيكيا» (١٩٩٢)، و«سراج الغولة» النص الوصيّة المنشور بعد وفاته.

تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات بينها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية، بالإضافة إلى اللغة العبرية.

رغم الكثير الذي كتب عن تجربته الأدبيّة، ما زالت هذه التّجربة تستقطب القرّاء والنُّقاد والباحثين العرب ومن العالم أجمع، بالتطويرات والتجديدات التي أدخلتها على الرواية العربية، وبالتوازيات التي أقامتها بين شخصيّاتها وشخصيّات روائية أُخرى في الرواية العالمية، وبما أضافته على أشكال السَّرد العربية التراثية بعد الاستفادة منها، وفوق ذلك كلّه بما أحدثته من أثر متميِّز وبصمة خاصة على الكتابة الأدبية العربية، شكلاً ومحتوىً.

إصدار آثاره الكاملة بعد عشر سنوات على رحيله يتيح لكل راغب إمكانية الإطلالة من جديد على العالم المدهش والممتع الذي بناه إميل حبيبي وظلّ يشكّل منارة تنير الدَّرب أمام الأجيال العربية وأمام الإنسانية جمعاء، بعد وفاته، كما كانت الحال في حياته.

(النّاشر)

ISBN 965-7388-00-7